الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي
-تيسمسيلت-
معهد الآداب واللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

مذكرة تخرج مقدّمة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي ، تخصص:الأدب العربي القديم قضايا و مقاربات ، موسومة بـ :

المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب
قراءة في أطروحات المعاصرين

إعداد الطالبتين :

- هودة لواجاني
- سومية بوح

إشراف الدكتور:

بشير دردار

السنة الجامعية: 1436-1437هـ/2015-2016م.

الشكر

قال تعالى:{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} سورة النمل الآية 19

الحمد لله الذي يستحق الشكر و الحمد لله الذي أرسل عبده محمدا شفيع الأمة و هادي البشرية لى ومنير القلوب ليكون رسول حق حاملا أجمل رسالة من أحسن الخالقين ، فصل اللهم ع سيدنا محمد و اجمعنا و إياه في جنة النعيم .

لعل كلمة الشكر لا تسع معناها لتفي أصحاب الفضل حقهم و لكن ربما أسعفتنا لنقدم أمنياتنيا و عرفاننا بالجميل لكل من ساهم في إنجاز عملنا المتواضع هذا وحاول و لو بالكلمة الطيبة مساندتنا و إبقاء شمعة الأمل التي أنارت سبيلنا و نحن بصدد إعداد بحثنا و لو كان الصمت يكتب على الأوراق و يقرأ لفضلناه على الكلام لأن اللغة ضاقت علينا بما رحبت فلم نجد من العبارات ما يصف حقيقة شعورنا فلا يسعنا إذا في هذا المقام أن نخط أسمى عبارات الشكر للأستاذ المشرف البشير دردار الذي لم يبخل علينا بأية معلومة بل عمل جاهدا لينال هذا الموضوع ما يستحق من البحث و الدراسة فمنحنا الثقة بإتمامه

كمانتقدم بخالص شكرنا إلى الأستاذ الدكتوررشيد مرسي مثال التألق و دستور النجاح دون أن ننسى صاحب الفضل في تحصيلنا المعرفي طيلة رحلتنا الجامعية الزميل و الأخ الحاضر و الوفي دائما سعيد بوشنافة .

إلى كل هؤلاء نتقدم بخالص شكرنا و تقديرنا و عسى الله أن يديمهم سراجا يشع درب العلم و ينيره .

إهداء

إلى الأسرة الكريمة اعترافا و تقديرا :

والدينا حفظهما الله

الإخوة و الأصدقاء

إليهم جميعا نهدي هذا العمل عربون المحبة و الوفاء

سومية بوح

هودة لواجاني

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه و نستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا....

ثم الحمد لله الذي أكرم العربية بمحكم كتابه، فخلد ذكرها ورفع أعلامها ، و منحها القدرة على المقاومة مهما عظمت الصدمات، و الصلاة و السلام على نبيه و مصطفاه، سيدنا مُحَمَّد الرحمة المهداة و النعمة المسداة، أفصح الخلق لسانا و أثبتهم جنانا و أوفاهم بيانا، و على آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان ، وبعد :

لقد اصطفى الله سبحانه و تعالى العرب بنعمة البيان، و أفردهم بحسن المنطق و طيب الكلام و جعل البيان و البلاغة خصلتهم من بين سائر بني الإنسان، و كأن البيان عند العرب قد احتل مكان الرأس من الجسد، فإنه قد استأثر بنصيب وافر من العلماء و أرباب البيان، إلى يومنا هذا .

إن البحث في تطور علم البيان قد مر بمراحل مختلفة إلى أن تحددت معالمه، و استقرت قواعده و استقام عوده، و أضحى علما قائما بذاته له قوانينه و قواعده التي تحكم، فبعد أن كان البيان رديفا للبلاغة لا فرق بينهما، يسعى من خلالهما المخاطب إلى إجادة القول و حسن الكلام أضحى بمرور الوقت علما واضح المعالم فاستقرت مباحثه و ضبطت فروعه و جزئياته.

و لأن لكل علم بداية و منتهى، فإن علم البيان قد ارتبط في منشئه و أصوله الأولى بعالم فذّ هيأ لمنبته و زرع بذوره الأولى ووضع أسسه الأولى ، إنه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، هذه الشخصية الفذة التي نسب إليها. و يشبه إجماع من الباحثين ، الريادة و الأثر الأعمق في الدراسات البيانية و البلاغية عند العرب، إذ خدم البيان خدمة لا تقدر و لا تضاهي، و تبعه العلماء من بعده في بناء صرح البيان العرب مقتفين أثره إلى أن برز للوجود مخطوط أرجع الباحثون نسبه لعالم جليل هو الآخر عالم في البيان هو " اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب" الكاتب الذي ألف "البرهان في

وجوه البيان" معارضة لكتاب البيان و التبيين للجاحظ و فيه وقف على علم البيان وضبط مفهومه و فصل أقسامه مما حمل بعض المتأخرين على القول بأحقية ابن وهب في الاحتراف في دوره و إسهامه في حقل البيان ، و بأنه مؤسس البيان العربي .

لقد اختلف النقاد و الباحثون البلاغيون المتأخرون حول من أسس البيان العربي و أرسى قواعده ، بين من يمنح الريادة للحفاظ في اجتراح هذا العلم و بين قائل بمركزية ابن وهب وإسهامه و أثره العميق في التأسيس للبيان العربي .

و من أجل هذا و ذاك جاءت دراستنا موسومة بـ :

"المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب :"قراءة في أطروحات المعاصرين "

فانطلقنا في بحثنا هذا من أسئلة كثيرا ما ترددت في أذهاننا و أثارت فينا حُبّ و شغف الاشتغال على هذا الموضوع ، و لعل أهم هذه التساؤلات ما يلي :

ماهي المعالم الأساسية التي بني عليها المنجز البياني عند الجاحظ ؟ و ما الذي حمل العلماء والبلاغيين على اعتبار الجاحظ مؤسساً للبيان العربي دون غيره من بلاغيّي العرب ؟ ثم فيما يتجلى إسهام ابن وهب الكاتب في حقل البياني ؟ و ما الذي حمل النقاد على رد الاعتبار إلى هذا العالم ؟ و هل يعد إسهامه استئنافا لما جاء به الجاحظ أم أنه معارضة و إعادة بناء لصرح البيان العربي وإلى أي مدى يمكننا اعتباره مؤسس للبيان العربي؟

إن أسئلتنا هذه لم تكن و ليدة العبث ، و لم تأت من فراغ ،بل هي أسئلة لطالما استفزتنا لولوج غمار هذا الحقل المعرفي من أجل استجلاء البيان العربي موطن بحثنا الموسوم بـ :المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب ،محاولين من خلال هذا العمل الإجابة عن الأسئلة التي ما فتئت تشغل حيزاً في أذهاننا فانطلقنا فيه إرضاءً لفضولنا المعرفي فكان هدفنا الأول و الأخير أن نساهم و لو بالقليل

في إثارة الموضوع وسط الحقل الطلابي، و نحن هاهنا لادعي أبدا تمكننا من نتائج البحث المتميزة ،و لكن لاجتهادنا أجر .

لقد اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي التحليلي ،ذلك أنه المنهج الملائم لرصد مختلف القراءات التي أفرغت جهودها فب إعادة قراءة الموروث البياني عند الجاحظ و ابن وهب و لجأنا للتحليل لما له من صلة في كشف الرؤى المعارضة و تبيان نقاط المفارقة ،ولكي يتسم بحثنا بالعلمية و المنهجية و برقي إلى لعمل الجاد و المتميز اتبعنا خطة جاءت وفق الشاكلة الآتية :مدخل وفصلين حاولنا في المدخل أن نعود بالبلاغة العربية إلى منابتها الأولى و نستعرض أهم الأعمال البلاغية التي أسهمت في بناء البلاغة العربية فوسمناه بـ :"مدخل إلى تاريخ البلاغة العربية: النشأة و التطور". أما الفصل الأول و الموسوم بـ: "المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب "و الذي يتصدى أولا إلى شخص الجاحظ باعتباره مؤسسا لنظرية البيان العربي ثم انتقلنا إلى ابن وهب و استئناف القول في بناء البيان .أما الفصل الثاني: فقد جاء موسوما بـ" المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب في نظر المعاصرين " فخصصنا مبحثه الأول :لمكانة الجاحظ من خلال قراءة المعاصرين للموروث البلاغي عند الجاحظ في حين رصدنا في مبحثنا الثاني أهمية مدونة الجاحظ النقدية البلاغية في آثار البلاغين القدامى .

و آخر مبحث خصصناه لفحص مسارين كبيرين يحاور كل منهما الآخر ،يقف الأول عند مقاربة تستهدف إبراز ما في التراث النقدي الجاحظي من قيم و مظاهر تأسيس للبيان العربي ، أما المسار الثاني فينصرف إلى قراءة وجهت للتراث الجاحظي تخالف سابقاتها ،و تنصّب ابن وهب مؤسساً للبيان و تبحث في آلياته الفكرية في تأسيس البيان العربي .

لينتهي البحث بخاتمة كانت حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها . ولم نصل إلى ما وصلنا إليه إلا بعد جهد و عناء كبيرين ، فقد واجهنا مصاعب متعددة ،أهمها سعة الموضوع و كثافته ،و ربما كانت تقصيرا منا أن لخصنا الكثير الكثير ،فما قيل عن عناصره الكبرى كثير و أما عناصره الجزئية فأكثر .

كما لا يخفى على أحد مدى أهمية و قوة مراجع البحث ،لأن أبعاد النجاح بالنسبة للدراسات العلمية تتحدّد بمدى ما يستطيع الطالب الحصل عليه من مصادر ،و نحن هنا تعاملنا مع الكثير منها ،إلا أن صعوبة المادة العلمية و عسر التعامل مهما كان أكثر الصعوبات التي اعترضتنا .

و على العموم فإن الجهد المبذول و مهما كانت العراقيل –في اعتقادنا – له قيمة ، ونحن لا نزعم أننا توصلنا إلى ما نريده تماما ،أو أتينا بالجديد ،بل على العكس ،إننا نعتبر هذا البحث مجرّد محاولة متواضعة لمعالجة موضوع واسع لا يزال في حاجة إلى دراسة و بحث معمقين ،عساه أن يرشحنا إلى الباحث العلمي ،و يرشح بحثنا لينال شرف البحث العلمي الممنهج و يكون نقطة بداية في دنيا الدراسات الفكرية.

و في الأخير نقول إن كان فضل هذه الدراسة –بعد الله عزّ وجل- يعود إلى توجيهات وإرشادات الأستاذ الفاضل ،المشرف على البحث ،الأستاذ الدكتور دردار البشير –حفظه الله- فقد كان لملاحظاته كبير الأثر في بلورة و تأسيس فصول و مباحث هذه الدراسة، فجزاه الله خير الجزاء.

تيسمسيلت في 22-05-2016

15 شعبان 1437

بوح سومية

لواجاني هودة

مدخل إلى تاريخ البلاغة العربية

(النشأة و التطور)

البلاغة العربية : النشأة و التطور

لقد عرف العرب بالفصاحة و البلاغة و حسن القول و الكلام، و لقد بلغوا منذ الجاهلية درجة رفيعة من البيان، و لعل خير ما يعطينا صورة واضحة جلية عمّا وصلوا إليه من حدق لغوي وتثقيف لأساليبهم شعرا و نثرا ما ورد في آيات القران من تصوير لقوة و حسن البيان الذي اتصفوا به، و كذا ما بلغوه من عارضة في القول، إذ كانوا خصمين جدلين ذوي ألسنة حداد، يقول تبارك و تعالى :ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ [1] و قوله جل و علا :وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ [2]، و كذلك قوله:وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ [3]، و لا شك أن ما ورد في هذه الآيات البينات أنما هو دليل و حجة قاطعة لما أوتوه من اللسن و الفصاحة و القدرة على حوك الكلام، و ما تميزوا به من سليقة لغوية سليمة، و لا يذكر أنه "تحدث تاريخ أمة من الأمم بما تحدث به تاريخ العرب من حب هؤلاء القوم للغتهم، و عنايتهم بشأنها و احتفائهم بها "[4]، ذلك أن العرب دون غيرهم من الشعوب قد أحلوا اللغة من حياتهم المحل الأول، و اعتبروا أن العربي غير كامل ما لم يبلغ من لسانه الغاية، لأجل ذلك كان البيان عند العرب سليقة و طبعا يتمادحون به ويتماجدون و "كان فيهم اللسن المقاول الذي راضوه و ملكوا أعنّته فاستقام لهم، و انطلقوا يصرفونه حيث يشاؤون "[5]، بما جادت به قرائحهم و

[1]–سورة الرحمن، الاية (1–4)

[2] – سورة الزخرف، الاية (58)

[3] – سورة البقرة، الاية (204)

[4] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، مصر، ص 23

[5] – بدوي طبانة، البيان العربي: دراسة تاريخية في اصول البلاغة العربية، مكتبة انجلو المصرية، القاهرة،ط2، 1377ه/1958م، ص 03

وجدانهم، و بما وهبوه من صحة القول و جمال التصوير، و قوة التأثير و روعة التعبير، و حسن تخير اللفظ جاعلين كل هذا مناط عزتهم و شرفهم. و الحقيقة أنه لم يكن حب البيان و شغف العرب به مقصورا على فئة خاصة منهم، "بل إنه كان طبعهم كافة و غريزتهم و فطرتهم التي فطروا عليها، هدتهم إليه سلائقهم و ألفته ألسنتهم "[1]،و قد حكى لنا التاريخ كثيرا من هذا الإحساس اللغوي الفطري الذي يفرقون به بين الكلمة و رديفتها، و عن تلك البصيرة بحسن القول و الإبانة و كل ذلك مما تقصه علينا كتب الإخبار لندرك هذا الذوق الرفيع و النمط البديع الذي ميز بلاغة العرب و بيانهم، و استطاعوا من خلاله أن يميزوا حسن الكلام من قبيحه، و مضوا يعربون عن إعجابهم و اهتمامهم الشديد ببلاغة القول، و هذا ما يتضح لنا جليا في تضاعيف كتب التراث، إذ يعرض علينا الجاحظ مثلا :في كتابه "البيان و التبيين" كيف أن العرب يصفون كلامهم من شعر و نثر و خطابة " ببرود العصب الموشاة و بالحلل و الديباج و الوشي، كما كانوا يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع لُسن" [2]،حتى أنهم لقبوا شعراءهم ألقابا تعكس جودة شعرهم و تعرب عن فصاحة منطقهم .

و لأن البيان أو البلاغة العربية بلغت ما بلغته من منزلة في حياة العرب فإنها أضحت بمرور العصور فنا و علما أصيلا من العلوم العربية الإسلامية، و الحقيقة أنه ليس هناك علم من العلوم النظرية و التجريبية برز إلى الحياة مكتمل الأصل و الظواهر، و إنما الذي ثبت على مر التاريخ أن أي فرع من فروع المعرفة إنما نشأ نشأة تدريجية، يبدأ بملاحظات منثورة هنا و هناك، "إلى أن يتطور بجهود المشتغلين عليه، فما يلبث أن ينضج و يزدهر، و هذا هو شأن البلاغة العربية"[3]، إذ لم تكن هذه الأخيرة وليدة ساعة أو يوم، و إنما تدرّجت من لدن الجاهلية إلى أيامنا الماثلة و اختلفت في طرائقها وأقسامها و فروعها حسب الزمان و المكان، بالإضافة إلى تنوع الثقافات و مستوى المتلقين، وكذا نمو الحياة العقلية التي تساهم في رسم مسار الأدب .

[1] –بدوي طبانة ،البيان العربي ، ص03.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، دار المعارف، الاسكندرية،ط 02، ص09

[3] – شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، تاصيل و تقسيم، دار الفكر العربي، القاهرة ، مصر، 1987، ص 07

و نحن من خلال هذا البحث سنحاول أن نسلط الضوء على أهم المراحل التي مرت بها البلاغة العربية عبر تطورها، و لكن قبل الشروع في ذلك ينبغي علينا أن نعرج أولا على قضية المصطلح، فكما هو معروف أن مصطلح البيان إنما كان رديف البلاغة قديما، إذ لم يكن المتقدمون يفرقون بينهما، فكان إن تحدث أحدهم عن البيان فإنما هو يريد به البلاغة فالأمر سيّان لأن مدار البحث فيهما هو حسن الكلام و إصابة المعنى مع خلوه من التكلف و الفضول و مراعاته لمقتضى الحال، و لذلك لم يكن لمصطلح البيان إطار واضح الحدود و المعالم إلى أن استقرت المباحث البلاغية و خُص علم البيان باطار خاص و " كان من مجموع ما كتبوا ذلك التراث الخالد الذي سُمي حينا بيانا، و سمي أحيانا بديعا، كما سمي بلاغة و فصاحة، و هي ألقاب و مصطلحات لا تبتعد كثيرا في مدلولها، كما لا تبتعد كثيرا في موضوعاتها "[1]. و مما لا يخفى على دارس البلاغة أن المتأخرين قد ذكروا بأن علوم البلاغة ثلاثة و هي : علم المعاني و علم البيان و علم البديع، ثم ذكروا أن كثيرا من العلماء القدامى كانوا يسمون العلوم الثلاثة بعلم البيان، كما ذكروا أن بعضهم كان يسمي البيان و البديع بعلم البيان، كما أن هناك من سمّى العلوم الثلاثة بعلم البديع قال الخطيب القزويني : "و كثير من الناس يسمي الجميع علم البيان، و بعضهم سمّى الأول علم المعاني و الثاني و الثالث علم البيان ، و الثلاثة علم البديع "[2]، و نلمس هذا اللبس في المصطلح عند جل المشتغلين في المجال، و قد استمر إلى قرون من تاريخ البلاغة العربية دون أن يُفصل القول فيه .

و إذا ما عدنا إلى الجاحظ باعتباره مؤسس علم البيان العربي حسب ما رآه النقاد و الباحثون البلاغيون نجد بأنه " لم يحدّد التعاريف البلاغية كما نعرفها اليوم، بل زرع في كتابه بذور العلوم البلاغية التي نمت و ازدهرت بفضل علمائنا بشرحها و تحديدها و التوسع بها"[3]، و غير بعيد عن هذا نجد الدكتور "بدوي طبانة" يذهب في معرض حديثه عن دور الإعجاز في التأسيس لعلم البيان إلى

[1] – بدوي طبانة، البيان العربي :دراسة فنية في اصول البلاغة ، ص 12.

[2] – القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، دار احياء العلوم، بيروت، ط4، 1998، ص 16.

[3] – محمد علي زكي صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين، المكتبة العصرية، صيدا،بيروت،ط1418،1ه/1998م ص 141

القول : "... و قد كان البيان و هو أقدم علوم البلاغة، و كان اسمه يطلق على ما يراد منها جميعا متأثرا في نشأته و في تطوره إلى حدٍّ بعيد بهذا العامل الديني "[1]، و بعد أن يتحدث عن تطور البلاغة العربية و أهم العوامل التي ساهمت في ذلك، يتجه إلى القول بأنه " يمكننا أن نتبيّن الفرق بين مصطلحي البيان و البلاغة عند الجاحظ في كتابه البيان و التبين "[2]. لقد جاء هذا التعليق بعد أن تحدث و شرح لنا الباحث كيف أنه توصل اليه، حيث رأى بأن الجاحظ الذي خصّص للبيان بابا خاصا به أسماه البيان " لم يقصر فيه البيان على فن التعبير القولي أو التعبير الكتابي بل يدرسه في مقدمة هذا الباب بمعناه الأوسع، معنى الكشف و الإظهار و الإبانة عما في النفس "[3]، و بالتالي كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح و كانت الإشارة أبين و أنور، كان أنفع و أنجع و الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان ... و البيان على هذا هو الدلالة بأنواعها وقد أحصى الجاحظ أصناف هذه الدلالات على المعاني و حصرها في خمسة"[4]، و يستدل الباحث "بدوي طبانة " فيما استنتجه من كون الجاحظ قد فرق بين البيان و البلاغة بأن الجاحظ قد اتبع باب البيان الذي أحصى فيه أصناف الدلالات و شرحها و ذكر ما يؤديه كل منها في الكشف والإبانة بباب ذكر فيه البلاغة و جمع فيه طائفة من الآراء مما يظهر لنا أن كلام الجاحظ في البلاغة غير كلامه في البيان، إنه في البلاغة يبحث في العبارة و في البيان يدرس أصناف الدلالات التي غايتها الفهم و الإفهام "[5]، و هكذا فرق الجاحظ حسب الدكتور بدوي طبانة بين البيان والبلاغة، أما عن الفرق بين البيان و علوم البلاغة الأخرى المتعارف عليها حديثا، فهو يرى بأن ما تحدث عنه الجاحظ في كتابه عن مذهب الصنعة و ما عالجه من وسائل هذا التصنيع كالبديع و كذا حديثه عن السجع و المزدوج من الكلام و الإيجاز و الإستعارة و غيرها لا تختص بالبيان وحده كما حدد البلاغيون مباحثه فيها، و إنما فيها من مباحث

[1] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص 14

[2] – المرجع نفسه، ص 56

[3] – المرجع السابق، ص ن

[4] – المرجع السابق، ص ن

[5] – المرجع نفسه، ص 58

علومها الثلاثة : البيان و المعاني و البديع و هكذا كان اسم البيان شاملا لعلومها الثلاثة لتعلقها جميعا بالبيان "[1].

و منه يمكننا القول بأن كلمة البيان قد شملت بمعناها الواسع ألفاظا و مصطلحات عديدة كالبديع و البلاغة و الفصاحة فقد ترددت معظمها في ثنايا البحث البياني عبر تطوره إلى أن استقرت على مفهوم خاص .

لقد سارت البلاغة متطورة عبر تاريخ طويل، منذ أن كانت صفة للكلام الجيد و القول المبين إلى أن أصبحت علما ذا قواعد و أحكام وفروع و أقسام، و إذا ما حاولنا التماس نشأة البلاغة تطورها عبر العصور فإنه يجدر بنا العودة إلى بداياتها الأولى من الجاهلية حتى انتهت إلى ما انتهت إليه الآن .

إن الباحث في مسار البلاغة العربية يتجلى له – و بإجماع الباحثين- أن البلاغة سارت عبر نموها وفق أربعة مراحل يمكننا إجمالها في الآتي :

1. مرحلة النشأة :

علمنا مما تقدم أن عرب الجاهلية قد بلغوا من حسن البيان و رفعة البلاغة ما لم تبلغه أمة من الأمم، على حد تعبير الجاحظ، و هذه غيرة واضحة من الجاحظ على العرب و على بيانهم، حين قرر في معرض حديثه عن البديع بأنه مقصور على العرب، و من أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان"[2]، و كما نرى هذه الحميّة العربية القومية عند الجاحظ نراها أيضا عند صاحب "سر الفصاحة " الذي يرى أن لا خفاء لميزات العربية عن سائر اللغات، و من تتبع جميع اللغات لم يجد فيها لغة تضاهي العربية في كثرة الأسماء و المسمى واحد"[3]، فهذه خاصية انفردت بها العربية وأهلها دون غيرهم من الأقوام.

[1] – بدوي طبانة،البيان العربي، ص 62.

[2] – المرجع نفسه، ص 97.

[3] – بدوي طبانة ،البيان العربي، ص 97

و تجدر الإشارة إلى أن الجاحظ قد اسهب الحديث في هذا الموضوع في كتابه "البيان و التبين" و مع أنه عُرف عن الجاحظ نظرته الإيجابية إلى الثقافات الإنسانية المشتركة و التي دفعته إلى القول بأن البلاغة مكسب مشترك بين الأمم كلها [1]، و استدل على ذلك بأمثلة و أحاديث ساقها عن البلاغة الأعجمية و عززها بنماذج توضيحية، غير أن ذلك لم يمنعه من الإعتداد بثقافته العربية الإسلامية، و الإشادة بتميزها، " فالعرب عنده حجة على جميع أهل اللغات "[2]، لامتلاكهم مميزات تجعلهم في نظره أنطق و أبين من غيرهم، مشيرا إلى ما يجتمع في العربي نفسه من القدرة الفائقة على الإبانة في القول و على البديهة و الإرتجال[3]، و قد فرق الجاحظ أثناء مباحثه البيانية بين البلاغة العربية و البلاغة العجمية مبيّنا أن قوام الأولى البديهة و الإرتجال و أن قوام الأخرى التفكير و المعاودة[4]، و هذا يعني أنه فرق ما بين الطبع و التكلف، و لأجل ذلك فإن العربي عند الجاحظ ذو مقدرة لسانية فائقة، فإذا تكلم جاء كلامه طبعا و إبداعا من غير عناء، بينما لا يجيء كلام الأعجمي إلا من نظر و مدارسة و مشقة و هو ما يبينه قوله:" إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة و اجتهاد رأي و طول خلوة و عن مشاورة و معاونة،... وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهة و ارتجال و كأنه إلهام ، و ليست هناك معاناة و لا مكابدة، و لا إجالة فكر، و لا استعانة، و إنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، فيأتيه أرسالا، و تنثال عليه الألفاظ انثيالا..."[5]، و من هنا انطلق الجاحظ نحو غايتين ، أولها: تأكيد أصالة الثقافة العربية الإسلامية و قوة عناصرها الكامنة في البيان، و ثانيها : قمع الغرور الثقافي الذي يستولي على بعض الثقافات المتعصبة لشأنها [6]، و من هنا كان حديثه عن الشعوبية التي جعلها سببا في تأليفه كتاب "البيان و التبيين".

---

[1] –الجاحظ، البيان و التبين

[2] – المرجع نفسه.

[3] – محمد محمود الدروبي، مقال حول" موقف الجاحظ من الثقافات الاجنبية"، مجلة ابحاث، مجمع اللغة العربية الاردني

[4] – الجاحظ، البيان و التبين

[5] –الجاحظ، البيان و التبين، مكتبة الخانجي، القاهرة، عبد السلام هارون ،ط7،1998،ج3،ص 28.

[6] –محمد محمود الدروبي، موقف الجاحظ من الثقافات الاجنبية .

و نشير إلى أن العرب – و لشدة شغفهم ببلوغ اعلى مراتب البلاغة- قد جعلوا شاعرا أو خطيبا لكل قبيلة، يوملون له و يحتفون به، و يجعلونه عميدا لهم، و فخرهم الذي يعبر بلسانهم ويذود عنهم و يعرب عن مكارمهم و مفاخرهم أمام القبائل الاخرى، و من هنا بدأت ترتسم ملامح البلاغة العربية في شكل ملاحظات اتصلت خاصة بالشعر لما كان هو السائد آنذاك كفن وديوان لهم, وهذا هو ما رصدته لنا تلك الموازنات التي كانت تُعقد بين الشعراء في الأسواق كسوق عكاظ ; أين يتم تفضيل بعضهم على بعض من قبل شاعر فحل يحتكم إليه الشعراء ,فيصدر أحكاما غالبا ما تكون ذاتية جزئية تنم عن ذوق خاص، وكذلك ما حملته تضاعيف الكتب من أمثلة وشواهد عن مثل تلك الموازنات ما يغني الباحث. ولكن وبالرغم من أن هذه الأحكام الذوقية لم تأت في شكل قواعد إلا أنها كانت جلية في الصور الفنية الجميلة وحسن بنائها; وهاته الأحكام إن دلت فإنما تدل على شغف العرب واهتمامهم بالفصاحة ,كما تدل على بصرهم بتميز أقدار الألفاظ والمعاني وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير. ومنه يمكن اعتبار مثل هذه الملاحظات البيانية لبنة من اللبنات الأولى التي أسست للبلاغة العربية كعلم مستقل بذاته فيما بعد.

لقد سارت هذه الملاحظات وأخذت تتطور شيئا فشيئا ,إلى أن جاء القرآن الكريم ;الذي شكل رافدا أساسيا للبلاغة العربية بما قدمه من أساليب الإعجاز وقوة البيان.

لقد نزل القران الكريم ليكون كتاب هداية ودستور حياة يهدي للتي هي أقوم ,وليكون معجزة للعالمين ودليلا على صدق نبوة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ;وكان المسلمون في عصر صدر الإسلام يعتمدون على طبعهم الأصيل في معرفة وإدراك إعجاز القرآن ,كما كانوا يعتمدون على طبعهم السليم في معرفة ضروب الكلام, فكان بذلك البيان أهم ما اعتُمد عليه في خدمة العقيدة الإسلامية ;لأنه يعمل على إبراز ما في القرآن من وجوه الجمال وسر الإعجاز, الذي بان به كلام الله وامتاز به من كلام العرب.

وبعد أن انتشر الإسلام ,واتسعت رقعته ,وكثر عدد الداخلين فيه, وأخذت هذه العناصر تمتزج امتزاجا قويا ,كان له أثره الكبير في اللغة العربية; حيث ظهر علماء قاموا بوضع قواعد الصرف والنحو ,يدفعهم إلى ذلك حرصهم على لغة القران الكريم .وسنأتي على ذكر بعض الأمثلة عن هذه المؤلفات. ومن هنا ولدت المعالم الأولى للبلاغة في أحضان كتب الإعجاز, وبات هذا الأخير الباعث الأول للتأليف البلاغي.

لقد عكف العلماء على دراسة القرآن وبيان سر إعجازه ,متخذين منه مدارا للدرس البلاغي ومن آياته شواهد على أابواب البلاغة ,واعتبروها مثلا يحتذى في جمال النظم وقلة التركيب ويذكر أن أبا عبيدة معمر بن المثنى/م208هـ/كان في مجلس الفضل بن الربيع ,فقال له ابراهيم بن اسماعيل الكاتب :قد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ فقال أبو عبيدة:هات. قال ابراهيم :قال عز وجل: طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ [1],

فكيف شبه القرآن طلع شجر الزقوم برؤوس الشياطين, وهو أمر مجهول ,فقال إن ذلك على غرار قول الشاعر :"امرئ القيس ":

أتقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونة زُرق كأنياب أغوال

وهم(العرب)لم يروا الغول قط, ولكنهم لما كان أمر الغول يهوّلهم أوعدوا به[2]; فاستحسن الفضل ذلك ,أما أبو عبيدة فعزم من ذلك اليوم أن يضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه[3], ليخرج بمؤلف ضخم، سنأتي على ذكره مع بقية المؤلفات التي وضعت لخدمة القرآن.

ولا ننسى حكم الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأحاديثه ,فقد كان يُعنى أشد العناية بتخيّر اللفظ والتعبير. فهذه الأخرى عُدّت من وجوه البلاغة.

[1] – سورة الصافات:الآية (65)

[2] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص14.

[3] – ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

وإذا ما جئنا لعصر بني أمية ,وجدنا حركة نشطة في الأدب .والنقد والبلاغة, إذ كثرت الملاحظات النقدية البيانية وذلك بفعل استقرار العرب في المدن وتحضرهم وازدهار العلوم بشتى أنواعها وكذا رقي الحياة العقلية, فكان طبيعيا أن ينمو النظر في بلاغة الكلام; لاسيما ما كان في مجالس الأمراء , وما شاع حول شعر النقائض مثلا; فما كان يخلو ذلك من الوجه البلاغي التطبيقي , بالإضافة إلى الجدل الكبير الذي قام به بين الفرق; إن كان في الشؤون السياسية أو ما دار من جدال بين الفرق الدينية في شؤون العقيدة[1], فقد لعبت كل هاته العوامل دورا كبيرا في نمو التفكير البلاغي , وكثرة الملاحظات المتصلة بحسن البيان.

ثم ليدركنا العصر العباسي , وما كان فيه من حياة للبلاغة العربية, أين أخذت الملاحظات البلاغية تزدهر ازدهارا عظيما, وتصطبغ بصبغة علمية ,إذ كان لتطور الشعر والنثر- بفعل تطور الحياة العقلية والحضارية- الأثر البالغ في نمو فنون البلاغة; وكذلك يعود الأمر في ازدهارها إلى نشوء طائفة محافظة هي طائفة اللغويين: وهؤلاء كانوا يعلّمون رواية الأدب وأصوله اللغوية والنحوية , وكان اهتمامهم بالشعر الجاهلي والإسلامي أكثر من الشعر العباسي[2]. أما طائفة المعلمين الأخرى ; فهي طائفة علماء الكلام وفي طليعتهم المعتزلة الذين عنوا بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة. وبذلك كانت "بيئة المتكلمين أسبق من غيرها في وضع قواعد البلاغة النثرية ,إذ أخذت منذ العصر العباسي الأول في وضع هذه القواعد , وكان أهم ما دفعها إلى ذلك تدريب الشباب على المهارة في الخطابة والبيان...وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي, فدار بينهم كلام كثير حول البلاغة وقواعدها البيانية...وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هي التي فرقت بين الحقيقة والمجاز وأعدّت لمباحث البيان المعروفة"[3]. ويستطيع الدارس هنا أن يلاحظ أنه مع بداية العصر العباسي برزت محاولات أولية لتدوين هذه الملاحظات وتسجيلها, "إذ أخذت العلوم في التميز والنضوج

[1] – ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم المعاني–البيان–البديع، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ص201–202.

[2] – المرجع نفسه، ص202.

[3] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، 4، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط12، ص518.

,والكثرة في المادة , وبدأ تأسيس الاصول"[1] ، فأدّت هذه الأسباب مجتمعة إلى نمو البحث البلاغي وازدهاره وبدأت البلاغة تتشكل في ظواهر ومؤلفات وأعلام واتجاهات سنأتي على ذكرها ،كلاّ حسب إسهامه.

لقد مضى الشعراء والكتاب يكثرون من ملاحظاتهم البلاغية, ساعين بكل ما أوتوا إلى تذليل المادة الأدبية لتكون مصدرا لأدبهم وثقافتهم, وحاملا لما جاءت به أحاسيسهم وعقولهم لاسيما ما ارتبط بجانب البيان والبلاغة.

والحقيقة أنه ليس الشعراء والكتاب ما يهمنا إسهامهم في دراسة البيان هاهنا; وإنما من شاركهم في هذا العمل وهما الطائفتان اللتان ظهرتا أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة[2], وهما طائفتا: المتكلمين وطائفة اللغويين.

إذا ما حاولنا التماس نشأة البلاغة في هذه الفترة ; فإننا نجدها عبارة عن بذور مزروعة عند عديد العلماء والباحثين, وهي تختلف كما وكيفا من فئة إلى أخرى ,ذلك أنها نشأت في شكل ملحوظات تطورت على أيدي نحويين ولغويين ومتكلمين ومفسرين.

1-1 طائفة اللغويين :

وقد كانت تضم مجموعة من العلماء المعلمين الذين احترفوا تلقين اللغة وتعليم رواية الشعر كما عنوا في دراستهم هاته بشرح الأشعار مما هداهم إلى البحث في أساليب الشعر القديم من ناحيتيها اللغوية والنحوية, كما هداهم كذلك لاستنباط بعض الخصائص الأسلوبية على نحو ما نجد في كتاب

[1] – ينظر: حمدي أبو علي، بحوث و مقالات في البيان و النقد الأدبي، دار البشير للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 1988، ص149.

[2] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص28.

سبويه من مثل كلامه عن التقديم والتأخير والذكر والتعريف والتنكير[1], ونحو ذلك, ومعلوم أن هاته المباحث اللغوية والنحوية قد كانت فعلا بمثابة إرهاصات لنشأة مباحث البيان فيما بعد وإسهاما من هؤلاء اللغويين في التأصيل لعلوم البلاغة.

1-1-1-أبو عبيدة معمر بن المثنى(م208)

وكان أقدم الذين كتبوا في البيان وساروا في هذا السبيل, فخدموا البيان عن طريق خدمة الكتاب حين سعوا إلى التوصل إلى فهم المعاني في الآيات القرآنية ,حيث عُدّ البيان من أهم العلوم التي خدمت العقيدة من خلال أبراز ما في القرآن الكريم وآياته المعجزة من وجوه الجمال التي امتاز بها , وبه فرق ما بين نظم القرآن ونظم سائر الكلام.

وكتاب مجاز القرآن الذي "عالج فيه كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية, باحتذاء أساليب العرب في الكلام, وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني"[2] ,ومن يقف عند هذا الكتاب يلقى كثيرا من الأساليب البلاغية وأيضا المباحث البيانية التي اعتمدها وأفاد منها كل من جاء بعده ;وتجدر الإشارة إلى أنه أول من تكلم بلفظ المجاز, كما ذكر ابن تيمية في كتابه "الايمان" ,غير أنه لم يتكلم عن المجاز الذي هو قسيم الحقيقة ,وإنما المجاز عنده يعني مرادف لكلمة التفسير أو التأويل[3], ولذلك جاء مؤلفه في تأويل آي القرآن وبيان أساليبه ,وقدم الكثير من الملحوظات البلاغية, وحدثنا في مواضع كثيرة عن الكناية والمجاز العقلي والتشبيه[4] وكلها مباحث تحيل إلى أصالة نشأة البلاغة العربية.

1 -1-2-الفراء(م207هـ)

[1] – ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص202.

[2] – بدوي طبانة، البيان العربي ، ص17.

[3] – ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص39.

[4] – ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة و التبعية، دار النفائس، الأردن، ط1، 1432هـ/2011م، ص110.

لقد أسهم هو الآخر من خلال كتابه "معاني القرآن" في التأسيس لمباحث البيان,فقد عني في كتابه هذا بالتخريج النحوي للآيات كما عني بشرح الألفاظ لغويا تؤيده شواهد الشعر وأوجه الإستعمال المعروفة عند العرب ,"ولا نعدم الملحوظات البلاغية في كتابه هذا كالتقديم والتأخير وغيرها من مباحث علم المعاني ;كما أشار إلى بعض مباحث علم البيان كالتشبيه والكتابة وغيرها وإن كان يغلب عليه طابع الإعراب"[1] والسبب في ذلك إنما يعود إلى كونه إماما لغويا وعالما نحويا.

1-1-3-الاصمعي(م211هـ)

والذي عرف عنه تمرسه بالمباحث اللغوية وتعمقه في قضاياها ,وإلمامه بمسائلها ,وإدراكه لها إدراكا ينم عن ذوق رفيع ; فقد وصلنا من كتب الأدب والشعر ملحوظات قيمة له فيما يخص التجنيس, والمطابقة والالتفات ,"ويظهر أنه أول من أفاض في الحديث عن المطابقة بمعناها الإصطلاحي "[2] ,بالإضافة إلى سبقه في استخدام مصطلح الإلتفات ,"ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الأصمعي أول من اقترح للإلتفات اسمه الاصطلاحي في البلاغة"[3] وبهذا يكون للأصمعي ملحوظات قيمة في جميع فروع البلاغة, خاصة البيان ,حينما تحدث عن التشبيه.

1-2-طائفة المتكلمين

والتي تضم علماء من فرق عدة تتجادل في شؤون العقيدة الإسلامية ,وكان لحواراتهم ومخاصماتهم الأثر الإيجابي في نمو الملاحظات البلاغية, فكثر الحديث حول قوة و وضوح العبارة ودقتها, وجهارة الصوت , وكذا ملاءمة الخطيب بين كلامه والمستمعين, ولقد كان لأهل الإعتزال وعلمائه النصيب

[1] – ينظر: المرجع نفسه.ص113.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص30.

[3] – المرجع نفسه، ص ن.

الأوفر في تطور أساليب البلاغة , من أمثال ثمامة والنظام و واصل, فقد كانوا هم "المجلون السابقون بين طوائف المتكلمين في البيان البارع"[1] , فقد نصب هؤلاء أنفسهم للدفاع عن الإسلام ومجابهة أصحاب الملل, وكذلك وقفوا لجدال أصحاب الفرق الإسلامية معتمدين في ذلك على ثقافتهم العربية الأصيلة وما ثقفوه من ألوان الثقافات الأجنبية, خاصة ما تعلق بالفلسفة والمنطق ليس تمثلا لها واعتناقا , وإنما بغرض الموازنة بين آرائها وآراء العرب في بلاغة الكلام[2]. وقد حفظ لنا كتاب "البيان والتبين" للجاحظ قدرا كبيرا من ملاحظات المعتزلة المتصلة بالبلاغة العربية, خاصة ما تضمنته صحيفة بشر بن المعتمر, إذ كان هذا الأخير من العلماء الذين كان لهم إسهام في هذا الحقل.

1-2-1بشر بن المعتمر(م203هـ)

من أئمة الأدب والكلام , ومن متكلمي المعتزلة ,سجل لنا ملاحظات قيمة في علم البلاغة في صحيفة تشبه أن تكون مقالة في موضوع البيان, "ولا نبالغ إذ قلنا أن خير ما أُثر عن المعتزلة في البلاغة حتى أوائل القرن الثالث هجري صحيفة بشر"[3] ,على أنه يمكن أن تفيد منها فائدة كبيرة في حقل البيان , والتي نقلها لنا الجاحظ في كتابه ,وقد قال عن صاحبها ,الباحث أمين الخولي بأنه يعد حقيقة من مؤسسي علوم البلاغة نظرا لما ضمته الصحيفة من ملاحظات وإشارات في البلاغة والبيان أقل ما يقال عنها أنها تأصيل للبلاغة العربية.

1-2-2-الجاحظ (م255هـ)

وتبلغ هذه المرحلة ذروتها على يد إمام فذّ انتهت إليه الرياسة دون منازع في دفاعه عن العربية والاعتزاز بالتراث , والغيرة على الثقافة العربية الإسلامية, ذلكم الجاحظ الذي خلد التراث مكتبة تكاد تكون شاملة متكاملة, تنتظم فيها شتى المعارف, "والذي يعنينا هذا التراث ,تلك الملاحظات أو

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص34.

[2] – المرجع نفسه،ص35.

[3] – المرجع نفسه، 34.

قل المباحث القيمة في قضايا البلاغة,"[1] والتي نجدها أكثر في كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان" أين يتحدث في مواضع متعددة من قضايا البلاغة نذكر منها: الإيجاز التشبيه, المجاز, الاستعارة, الكناية وغيرها مما سنأتي على ذكره في فصل نخصصه للجاحظ وإسهاماته في علم البيان.

ويمكن لنا أن نتحدث بالإضافة الى هاتين الطائفتين –عن لغويين آخرين ,أدلوا بدلوهم في البلاغة العربية وأسهموا في التأسيس لها, لعل أهمهم:

1-3-ابن قتيبة (م276هـ)

وذلك في مؤلفه "تأويل مشاكل القرآن" إذ يعد هذا الأخير موسوعة ودائرة معارف; فهو "لم ينهج منهج علماء الكلام ولم يستخدم أقيستهم العقلية, وإنما كان همّ صاحبه بيان ما يحتاج القرآن من بيان, فعرض فيه لما خفي عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالته على معناه"[2] ومما ميز ابن قتيبة عن غيره هو حسن التبويب وجمع المعلومات بعضها إلى بعض بحسب رأي أغلب الباحثين في الحقل البياني.

1-4-المبرّد(م285هـ)

صاحب كتاب "الكامل" الذي عرض فيه نماذج أدبية ,شعرية ونثرية ,تتخللها بعض الملاحظات البيانية ,فقد تحدث عن المجاز بمعناه اللغوي وأشار في أكثر من موضع إلى ما في الكلام من استعارة والتفات أو إيجاز أو إطناب[3]، كما وقف هذا العالم عند الكناية وفصل الحديث في التشبيه مما لم يسبق إليه أحد قبله , ولعل هذا ما جعل الباحثين يدرجون مؤلفه ضمن الإسهامات الكبرى التي عملت على التأسيس للبلاغة العربية.

[1] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص116

[2] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص19.

[3] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص60.

كان هذا مما قل من كتب اللغة والقرآن التي افتتح بها العلماء سبيل البحث في البيان العربي, ومهدوا طرائقه وفتحوا أبوابه , ويمكننا تلخيص السمات العاملة التي ميزت هذه المرحلة في ثلاثة نقاط:

ا/-عدم تحديد المصطلحات البلاغية :ونقصد هاهنا اضطراب المدلول "وآية ذلك أن تجد التشبيه والاستعارة والكناية يختلط بعضها ببعض"[1], وما هي إلا نظرة عجلى لما كتبه ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" , وما كتبه الجاحظ يجعلك تقف عند مثل هذا الاضطراب .

ب/-عدم التبويب, والذي يظهر جليا في كتب الجاحظ, وليس هذا مما يؤاخذ عليه, "ولذلك ومن الإنصاف أن نقرر أنه لم يكن من المتوقع أن يفعل الجاحظ أكثر من هذا الذي عمل, إذ قدرنا أن هذا الموضوع يكتب فيه الجاحظ للمرة الأولى بحثا مستحدثا"[2] .

ج/-اختلاط القضايا البلاغية بغيرها من العلوم الأخرى ,مما نشأ عنه عدم تميز علوم البلاغة عن بعضها البعض, وهي ظاهرة مست مختلف العلوم الإسلامية —على غرار البلاغة-في ذلك الوقت.

فلقد تضافرت إذا كل هذه الجهود وهذه الأعمال —إن كانت لغوية أو قرآنية —في الدفع بعجلة نمو البلاغة وتطورها, وحسب ما رأينا ; يمكن أن نقول أن هذه المرحلة مثلت التمهيد للتأليف البلاغي, أما مرحلة بداية التأليف الفعلي لعلم البلاغة فإنها تبدأ بالمرحلة الموالية.

2-مرحلة وضع الدراسات المنهجية

لقد استمر اللغويون في القرن الثالث هجري بالبحث البياني, غير أنهم لم يحاولوا الاطلاع على ما جد من الثقافات ,"بل بقوا محافظين بشدة على أسلوبهم في التلقين, ليتوسعوا بعد هذا القرن شيئا

[1] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص117.

[2] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص61

فشيئا في المباحث اللغوية منحازين أكثر عن مباحث البيان والبلاغة"[1] أما المتكلمون فقد ظل نشاطهم محافظا على سيرورته , فعنوا بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا ولا ننسى أن نشير بأن البحث اللغوي قد نشط في القرن الرابع على يد أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني, فاتجه أغلب "علماء الأدب في أوله إلى الكتابة في النقد, ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان, ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة كبيرة انتقلت بهم للبحث في مظاهر البيان ومشكلات البلاغة فاتجه تأليفهم في آخر هذا القرن إلى بحوث البلاغة نفسها"[2].

ونصل –بعد كل ما مررنا به من مراحل –إلى بداية أو ظهور باكورة الدراسات البيانية المتخصصة والمتمثلة في كتاب "البديع" بحسب النقاد ,إذ من خلاله "يتضح لنا خط يبلور نشأة البلاغة العربية من دور الملاحظات المتناثرة إلى بروزها في مؤلفات إلى تقنينها على يد"ابن المعتز" تحت مسمى "البديع"[3] ,وكما قلنا بأن لفظ البيان أو البديع في ذلك العصر كان لا يقسم البلاغة إلى تلك الاقسام التي سنعرفها فيما بعد باسم البيان و المعاني والبديع, بل بقيت مصطلحات شاملة لمختلف فنون البلاغة أو البيان.

2-1-كتاب البديع لابن المعتز(م296هـ)

ويبدأ التدوين في صميم البيان بتأليف ابن المعتز لكتابه "البديع", وبالرغم من أن كتابه لا يعدو أن يكون "مجموعة صغيرة من الأوراق تمثل أول محاولة في الدرس البلاغي المنظم الخالص"[4] ,فقد جمع فيه صاحبه طائفة من تقاليد فن القول, أو ما نسميه الصور البلاغية, وقدم تعريفا لكل منها, وليس لكلمة البديع التي جاءت في عنوان الكتاب صلة بما سماه البلاغيون في العصور المتأخرة بعلم البديع :أحد علوم البلاغة الثلاثة وإنما المقصود به ألوان طريفة من التعبير لم تكن شائعة ومألوفة في

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص63.

[2] – محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف،البلاغة العربية بين التقليد و التجديد، دار الجيل، بيروت لبنان ، ط1، 1412هـ/1992هـ، ص35.

[3] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور، منشأة المعارف بالأسكندرية، مصر،ط2،ص26.

[4] – شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب،ص69.

استعمالات الشعراء والكتاب. وهو ما أشار إليه ابن المعتز نفسه في المقدمة حين جعل شواهده من كتاب الله وسنة نبيه وكلام الصحابة وشعر الجاهلين وكذا كلام العرب, ليثبت"بما لا يقبل مجالا للريب أن أبا نواس ومسلم بن الوليد وبشار ليسوا أول من نطق بالبديع وأحدثه"[1] ,وإنما أراد أن يثبت بأن البديع موجود قبل ذلك , ولكنهم غلوا فيه , وبذلك أسقط ادعاء المحدثين بأنهم سبقوا إلى تلك الفنون. وتجدر الإشارة إلى أن ابن المعتز قد ضمن كتابه خمسة أنواع من البديع, وأضاف بعدها إلى الخمس الأولى بعضا مما سماه محاسن الكلام والشعر وجعله في ثلاثة عشر نوعا ,ويصرح ابن المعتز نفسه في صدر كتابه: "وما جمع قبلي فنون البديع أحد"[2] ، حتى ليُغنى البحث البياني أيّما غنا وكل ذلك يدخل دائما في دائرة البيان بمعناه الواسع الذي لا يفرق بين لون ولون[3]، ولا يقسمها إلى مجموعات مثلما فعل المتأخرون في بيان ومعان وبديع. ومع أن كتاب ابن المعتز يعد مثالا للتطور البلاغي من تسجيل الملاحظات إلى وضع الدراسات, فإن هذا لا يمنع من وجود محاولات أخرى; منها ما جاء في دراسة بعض المتفلسفة وأيضا دراسات أخرى لبعض المتكلمين بالإضافة إلى بعض الدراسات النقدية التي وضعت على أسس بلاغية, ثم دراسات لبعض المتأدبين . وللإشارة فإن هذه التقسيمات قد اعتمدها الدكتور "شوقي ضيف" في كتابه" البلاغة تطور وتاريخ".

أما الدراسات التي خُصّت ببعض المعتزلة , إنما يمثلها أولا:

2-2-نقد الشعر لقدامة بن جعفر(م337)

لقد كشف هذا الأخير عن تقاليد الفن في البيان العربي ,مثله مثل ابن المعتز, كما يتفق معه في تنظيم المادة العلمية التي عرض لها تنظيما منهجيا ,يتميز بالشرح والتوضيح لأغلب الشواهد, غير أنه زاد فيه من أنواع البديع على ما ذكره ابن المعتز عشرين لونا[4] ,غير أن منهجه الفلسفي يبعد به عن

[1] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص124.

[2] –محمد عبد المنعم خفاجي، البلاغة العربية بين التقليد و التجديد، ص35.

[3] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص65

[4] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور، ص27.

سيولة العرض والروح الأدبية التي نجدها عند ابن المعتز ,حيث تطغى التأثيرات الفلسفية في التقسيم والتفريع ومحاولة منطقة كل شيئ[1]، وهذا ما يحيل إلى ما ثقفه قدامة من مقاييس البلاغة اليونانية مازجا ذلك بما يمثله من مقاييس من سبقوه كالجاحظ وابن المعتز والأصمعي[2], وبمساهمة قدامة تبدا أقدم المتأثرين بالتيار الفلسفي في الثبات والرسوخ والولوج إلى دائرة البحث البياني .ثم لنجد كتاب:

2-3-نقد النثر "كتاب البرهان في وجوه البيان": لابي اسحاق بن وهب الكاتب :.

وهو مؤلَّف دار حوله جدل كبير, سنأتي على عرضه في مبحث مستقل, وما يهمنا في هذا الموضوع هو ما حواه المؤلَّف من إسهامات في حقل البيان, إذ انطلق صاحبه مقتفيا طريق الجاحظ في "البيان والتبين" ومنتقدا إياه , من حيث أنه وجد فيه أخبارا منتحلة وأنه لم يأت فيه على وصف البيان ولا أتى على إقسامه , حتى بات هذا الكتاب غير مستحق لهذا الاسم[3] . ويمضي ابن وهب بتقسيم البيان ويجعله في أربعة أوجه :**بيان الاعتبار-بيان الاعتقاد-بيان العبارة-والبيان بالكتاب,** والملاحظ والمتأمل لهذه الأوجه إنما يجدها قريبة من صفوف البيان التي قال بها الجاحظ قبله.

أما فيما يخص دراسات المتكلمين, فعلمنا مما سبق أن نشاطهم بقي مستمرا يثمر مؤلفات مختلفة إذ بقيت فكرة الإعجاز متسلطة على أذهان الباحثين في البيان, إذ قل ما نجد أثرا من الآثار التي عرضت للبيان العربي تخلو من الإشارة لإعجاز القرآن ونظمه, فتعددت الإسهامات كما وكيفا وسنحاول هاهنا أن نتعرض لأهمها

2-4-النكت في اعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني (م386هـ)

وهو أحد أعلام الاعتزال, تحدث في رسالته عن وجوه إعجاز القرآن, وخصوصا في سبعة أوجه, والذي يعنينا منها الوجه الذي استغرق أكثر الرسالة وهو البلاغة , فقد ذكر تعريفات لها واختار منها

[1] – ينظر: رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور، ص27

[2] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ،ص92.

[3] – ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، ص66.

:"البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[1], ثم مضى يقسم البلاغة أقساما عشرة, منها ما يتصل بالبيان كالتشبيه والاستعارة[2] ,ويجعل التشبيه على مراتب ,ثم أوضح الفرق بينها وبين التشبيه وقد مثل لذلك بكثير من آيات الذكر الحكيم , وقدم ملحوظات قيمة في حقل البيان أفاد منها الكثير من المتأخرين.

2-5 – إعجاز القرآن لأبي بكر مُحَمَّد الطيب الباقلاني (ت403هـ)

و هو الآخر من أعلام المتكلمين وضع كتابه هذا ،فذاع و انتشر و طبقت شهرته الآفاق فكان حديث القاصي و الداني ممن جاء بعده ، ولعل أوفى كتب الإعجاز في هذا العصر[3]، اهتم فيه بالبلاغة و علومها المختلفة ، وفتح فصلا لبيان وجوه الإعجاز القرآني ، كما تصور أن سائلا قد يسأل : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع ؟.

فيجيب عن هذا السؤال بإيراد بعض الألوان من البديع مما عرف بعضه عند ابن المعتز ، و بعضه عند قدامة و بعضه عند أبي هلال، و يعرض معها نماذج[4] للاستدلال على صحة مذهبه.

2-6- إعجاز القرآن للقاضي أبي الحسن عبد الجبار (م 415هـ)

والذي أورد في مؤلفه فصلين ، أحدهما حول الفصاحة التي بها يفضل بعض الكلام عن بعض أما ثانيهما فعرض فيه رأيه الخاص في الوجه الذي يقع له التفاضل في فصاحة الكلام[5]، كما يمكن أن نضيف :

2-7- رسالة الخطابي (م388هـ)

[1] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها،ص120

[2] – ينظر: مصطفى هدارة، في البلاغة العربية: علم البيان ، دار العلوم العربية، ببيروت لبنان، ط1، 1409هـ/1989م، ص22.

[3] – ينظر فضل حسن عباس، البلاغة العربية المفترى عليها، ص 120.

[4] – البيان العربي، بدوي طبانة، ص 29.

[5] – ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها ،ص 121.

أين يشير بحق إلى ملحوظات ذات أثر و شأن أفاد منها كثيرون ، فقد تحدث عن أقسام الكلام البليغ و عن العناصر التي لا بد منها لاختيار اللفظ و جمال النظم و صحة المعنى[1]، و هي بحق اسهامات جليلة في حقل البيان العربي .

و نعرج الآن على بعض الدراسات النقدية التي وضعت على أسس بلاغية – و التي لعب التياران اللذان برزا للوجود في هذا العصر الدور الأكبر في تأليفها – ونقصد ها هنا ما كان من مذهبي المحافظة و التجديد ، فكان من الطبيعي أن تنشأ مثل هذه الدراسات لتنظر بعيون النقد لهذه المؤلفات خاصة ما اتصل منها بالجانب البلاغي ، و يمكن أن نحدد أهم الكتب التي ألفت في هذا العصر كالآتي :

2-8- عيار الشعر لابن طباطبة (م 322هـ)

و الحقيقة أن هذا الكتاب جاء عاما لم يختص بشاعر واحد ، و إنما انبرى للحديث عن الشعر في كل فتراته ، فجعل منه مؤلفا في صناعة الشعر و الميزان الذي تقاس به البلاغة ، كما أنه قد اهتم بالتشبيه و فصل القول فيه ، إذ يختلف في نهجه و بعض موضوعاته عما سبقه من دراسات في نقد الشعر ، و يكمن هذا الاختلاف في كونه لم يتخذ البديع وحده رائدا فيصف أبوابه[2]، كما هو الحال في كتاب "البديع" و "نقد الشعر" و "الصناعتين" . كما أنه لم ينصب على شاعر بعينه ، أو جماعة ينتصر لها ، كما هو الحال في كتاب "الموازنة " و "الوساطة"، و إنما جاء "عيار الشعر": "دراسة فنية لصنعة الشعر و قياس جيده من رديئه "[3]، أي أنه استهدف الأصول الفنية للشعر التي تجعله رائعا رفيعا الجودة ، فجعل من الشاعر" ذلك الناسج الحاذق الذي يفوّف وشيه بأحسن التفويف ، و كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها و الثمين الرائق"[4]، كما اهتم بالتشبيه اهتماما كبيرا

[1] – ينظر: مرجع نفسه، ص ن.

[2] – محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد الأدبي و البلاغة ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ص166.

[3]– ينظر: محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد الأدبي و البلاغة ، ص166 .

[4]– محمد مصطفى هدارة ، في البلاغة العربية ، ص18.

معتمدا في ذلك على ما استمده من دراسات السابقين ، وجعل كتابه في قسمين : مقدمة دارت حول أربعة موضوعات أساسية أهمها عيار الشعر ، و متن عرض فيه لقضايا تتصل بفن صناعة الشعر ن وختم الكتاب بأحكام عامة يختص بها الشعر الجيد ،و أسهم بذلك الإسهام الكبير في التأصيل لعلم البيان.

2-9- كتاب الموازنة بين أبي تمام و البحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (م 371هـ)

يظهر موضوع الكتاب من عنوانه ، فمعلوم أنه قد ظهر في ذلك العصر مذهبان ، أحدهما المذهب البديعي ، ممثلا بأبي تمام ، و المذهب المحافظ يمثله البحتري ، و فيه يتحقق عمود الشعر[1] والذي يعنينا من ذلك ما كان لهذا الكتاب من إسهام للقضايا البلاغية ، فبعد أن عرض لنا الجدال الذي قام بين أنصار الشاعرين انطلق يحدثنا عن آراء غاية في الدقة و البيان من مثل حديثه عن الذوق ومقاييسه و أهميته في صناعة الشعر ، و كذا قضية عمود الشعر التي طبقها تطبيقا واسعا و جزئيا حين انتصر للبحتري لقربه في الآداء و الأسلوب من القدماء[2]. لقد بنى الآمدي منهجه على خطوات أولها عرض مذاهب النقاد في الشاعرين و الاهتمام بقول أنصار كل واحد منهما ، كما استعرض ما قيل من محاسن و مساوئ في كل منهما ، ثم يبدأ في الموازنة بطريقته ، ليتعرض في ثنايا موازنته للكثير من القضايا النقدية البلاغية .

2-10- كتاب الوساطة بين المتنبي و خصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني(م392هـ)

لقد كان الجرجاني أول من فرق بين كثير من الفنون البلاغية التي كانت متداخلة ،فقد فرق بين التشبيه البليغ و الاستعارة ، اللذان كانا يعدان شيئا واحدا عند الكثيرين ، حتى عند معاصره الآمدي[3] ، و قد أطال الحديث عن التشبيه ، كما تحدث عن التجنيس و عن حسن الاستعلال والتخلص و الخاتمة، و خاصة عند المتنبي ثم ليفتح " فصلا مستفيضا في كتابه للحديث حول السرقات عند المتنبي

[1]– ينظر: مصطفى عبد الرحمن ابراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، مكة للطباعة ، 1419هـ–1998م، ص152.

[2]– ينظر: مصطفى عبد الرحمن ابراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص152

[3] – ينظر: فضل حسن عباس ، البلاغة المفترى عليها ، ص 132.

"[1]، كما وقف عند الغلو و المبالغة ، ورأى أن لا يخرج بهما الشاعر عن حد المعقول ، بالإضافة إلى إشارات بلاغية أوردها الجرجاني في مؤلفه جعلت منه أكثر كتب النقد تطبيقا و تنظيرا على السواء ، و الذي أفادت منه البلاغة ملحوظات أصبحت فيما بعد من صلب مسائل علم البلاغة ، ذلك أنها كانت نتيجة بصيرة و نظرات خاصة ، و قوة إدراك منه ، حتى أن الجرجاني المتأخر ، قد أفاد كثيرا من أعمال عبد العزيز[2]، فقد ذكره كثيرا في كتبه .

و سنلقي نظرة خاظفة على بعض دراسات المتأدبين الذين كانت لهم مساهمات قيمة في حقل البلاغة نذكر منهم :

2-11- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (م395هـ)

لا شك في أن جهود أبي هلال العسكري في علم البيان واضحة جلية ، و هذا ما نستجليه في مؤلفه "الصناعتين" و يقصد بهما : الشعر و النثر ، و قد صرح برغبته في الكشف عن الحدود والأقسام لوجوه البيان الذي سار إليها الجاحظ من قبل ، ولكن لا يُتوصل إليها إلا بطول التأمل في مقدمته ، حين رأى بأن كتب المتقدمين فيها كثير من الاضطرابات و الخلط خاصة كتاب الجاحظ الذي يصعب فيه الكشف عن مناحي البلاغة و مسائلها المتعددة ، و لأجل سد النقص أُلف الصناعتين[3]، فجعله في عشرة أبواب ، منها ما كان في البلاغة ، منها ما كان في البلاغة ومعرفة صنعة الكلام ما جاء حول حسن النظم و جودة الرصف ، وباب جعله للإيجاز نقله كاملا عن الرماني[4]، كما أشار للتشبيه و أكثر في ذلك من الأمثلة و الشواهد مستضيئا بأعمال من سبقوه من أمثال ابن طباطبا و ابن المعتز و قدامة فيما اختص به باب البديع و بالنظر إلى ما قدمه هذا العالم من جهود ، فلا يمكن إلا أن نقول بأن كتابه كان ذا قيمة في البحث البلاغي .

[1] – شوقي ضيف ، البلاغة تطور و تاريخ ، ص 136.

[2] – ينظر: فضل حسن عباس ن البلاغة المفترى عليها ن ص128.

[3]– ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ ن ص128 .

[4]– ينظر : فضل حسن عباس ، البلاغة المفترى عليها، ص 128

2-12- كتاب العمدة في صناعة الشعر و نقده لان رشيق القيرواني (م 463هـ)

و هو أحد المشتغلين في الحقل البلاغي الذين أسهموا في تطور علم البيان و كتابه "العمدة" الذي جعله في نحو مائة باب تحدث فيه حديثا مستفيضا عن الشعر ،ذكر فيه الكثير من الفنون البلاغية سواء كانت من مباحث علم البيان ، أو مباحث علم البديع ، فقد تحدث كثيرا عن المجاز و كثرته في كلام العرب ، كونهم يعدونه من مفاخر كلامهم ، و دليل الفصاحة و رأس البلاغة ، كما رأى أن المجاز أبلغ من الحقيقة و أحسن وقعا في القلوب و الأسماع مستفيدا في ذلك من آراء سابقيه[1]، كابن قتيبة و غيره و قد ساق أمثلة عدة لتبيان ذلك، كما يعقد فصلا للاستعارة نقل فيه عن الجرجاني و الرماني[2]، و مما نقله عن أبي الحسن الرماني تعريفه للبيان و هو قوله :"البيان هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك "، و كذلك نقل عنه قوله بأن: "البيان الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير غفلة "[3]، مردفا هذه التعاريف بأمثلة يعترف لقائلها بامتلاك ناصية البيان ، كما أورد بابا للتجنيس و الالتفات و المبالغة و الغلو ، كام أفاض بالمقابل في الكثير من المسائل التي تتصل بنقد الشعر .

2-13- كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (م 466هـ)

و نلتقي بكتاب سر الفصاحة الذي عني فيه اصحبه بتفسير الفصاحة و راح يفرق بينها و بين البلاغة ، فالأولى عنده خاصة باللفظ[4]، أما الثانية فخاصة بالمعنى ، كما ذكر شذرات من مباحث علم البيان فتحدث عن الفرق بين التشبيه و الاستعارة ،" نافس العلماء السابقين من أمثال الرماني و الآمدي و القاضي الجرجاني في بعض تعريفاتهم أو تحليلاتهم لنماذج من الاستعارة"[5]، كما فصل القول في الحروف و صفاتها و أصواتها ، و أيضا ذكر لتفا من علم المعاني مستنيرا بآراء السابقين له

[1]- ينظر : رجاء عيد ، فلسفة البلاغة ن ص 31.

[2]- ينظر : شوقي ضيف ، البلاغة تطور و تاريخ ، ص148.

[3]- بدوي طبانة ، البيان العربي ، ص93.

[4]- ينظر : رجاء عيد ، فلسفة البلاغة ، ص 31.

[5]- بدوي طبانة ، البيان العربي ، ص98.

وعُد كتابه من أهم المؤلفات التي جعل منها من لحقوه مقدمة لدراسة فنون البلاغة الثلاث و "التي لم يفرق بينها الخفاجي كام لم يفرق بينها سابقوه من الباحثين في البيان العربي"[1]ن غير أنها تعتبر بحق من صميم البحث البياني عند العرب .

كان هذا عن بعض المؤلفات النقدية التي تناولت مباحث مختلفة من علم البلاغة ، إذ يمكن القول بأن صور البديع الأساسية قد ضبطت ضبطا دقيقا منذ القرن الرابع الهجري بخلاف صور علمَيّ المعاني و البيان ، إذ بقيا ينتقران نوعا ما لشيء من الضبط الدقيق"[2]، ذلك أن ما جاء في علم المعاني كان نظريات متناثرة لا توحدها نظرية شاملة ، على عكس علم البيان الذي تحددت و لو جزئيا معالمه ، ورسمت فنونه ، مما يسمح بتشكل نظرية متكاملة البناء في المراحل التالية التي مرت بها البلاغة العربية عبر تطورها .

3- مرحلة الازدهار

بعد كل ما مرت به البلاغة العربية من نشأة و تطور مذ أن بدأت في العصر الجاهلي في شكل ملاحظات بيانية أخذت و أحذت تتكاثر على مر العصور ، إلا أنها بقيت بحاجة إلى من يجمع شواردها و يضم قواعدها ، وها هي الآن تبرز للوجود كعلم مستقل بذاته له أساليبه و أفانينه على يد علامة القرن "عبد القاهر الجرجاني "

3-1- عبد القاهر الجرجاني (م 474هـ)

لقد أجمع الباحثون في الحقل البياني العربي على أن البلاغة العربية إنما بلغت أوجها عند الشيخ الجرجاني أريحيته و خلفته قريحته حين " اقتطف ثمار كل الجهود و اتخذ منها مادة استعان بها في وضع

[1]- محمد مصطفى هدارة ، في البلاغة العربية ، ص25.

[2]- شوقي ضيف ، البلاغة تطور و تاريخ ، ص158.

نظرية علم البيان[1] ، لا بل قل نظرية تامة متكاملة البيان و وافية الأركان ، و لذلك فقد مثل مجيئه منعطفا خطيرا في تاريخ البلاغة العربية ، فعد بحق مؤسس هذا العلم و المشيد لأركانه والموضح لمشكلاته[2]، و على نهجة سار المؤلفون من بعده، و أتموا البيان الذي أسّسه و شيد معالمه.

إن ما توصّل إليه الجرجاني من إحكام و ما أرساه من قواعد علم البيان، إنما استضاء فيه بجهود من سبقوه " كما أنّه لم يكن فكرهُ تقليدا لمذهب أو احتذاء لفكر الآخرين، إنما كان أصيلا جديداً لكّل من سبقه من أفكار البلاغيين و النقّاد"[3] لذا جاءت أحكامه البلاغية نتاجاً لذوق أدبي مرهف، صقله إطلاع واسع على الثقافات العربية و آدابها، و قراءات عميقة في شتى مصادر البيان العربي، منذ عصر الجاحظ، و من تلاهُ من أمثال ابن قتيبة و ابن المعتز و قدامة و الآمدي و أبي الحسن الجرجاني صاحب الوساطة و الباقلاني و غيرهم، و يصرّح محقق كتاب أسرار البلاغة في مقدمة الكتاب بقوله "... لقد كتب قبل عبد القاهرفي مسائل البيان بعض البلغاء، كالجاحظ و ابن دريد و قدامة الكاتب و لكنهم لم يبلغوا فيما بنوه أن جعلوه فنا مرفوع القواعد مفتح الأبواب كما فعل عبد القاهر الجرجاني من بعدهم فهو واضع علم البلاغة كما صّرح به بعض علمائها.[4]

و ذكر في موضع آخر: " أما كون عبد القاهر الجرجاني هو واضع الفن و مؤسسه، فقد صّرح به غير واحد من العلماء الأعلام، أجلّهم قدرا و أرفعهم ذكراً، أمير المؤمنين محي علوم اللغة و الدين السيد: " يحي بن حمزة الحسني" صاحب كتاب " الطراز في حقائق علوم الإعجاز" فقد قال في فاتحة كتابه هذا و هو من أحسن ما كتب في البلاغة " عبد القاهر" ما نصه: أوّل من أسس لهذا الفن قواعده و أوضح براهينه، و أظهر فوائده، و رتب أقانينه الشيخ العالم التحرير علم المحققين عبد القاهر

[1] – عبد العزيز عتيق ن في البلاغة العربية ، ص215.

[2] – ينظر : المرجع نفسه ن ص ن.

[3] – عبد المنعم خفاجي و آخرون، الأسلوبية و البيان العربي، الدار المصرية اللسانية، ص 5–6.

[4] – عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغيين علم البيان، تح محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1409هـ، 1988م، ص 101

الجرجاني، فلقد فك فيه قيد الغرائب بالتقييد، ... و فتح زهاره من أكمامها فجزاه الله الإسلام أفضل جزاء ... له من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز والأخر لقبّه بأسرار البلاغة"[1]

و هذا مما يدل على أن هذا العالم قد احتل مكانة مرموقة في تاريخ البلاغة، و غذا استطاع أن يضع نظريتي علمية المعاني و البيان وضعًا دقيقا، مستفيدا من آراء سابقيه و فلسفتهم البيانية إذا لم يفته أن يرجع إلى كلّ ما ألّف في البلاغة، و بذلك اجتهد كّل الاجتهاد في البحث و التفكير والاستنتاج إلى أن توصل إلى وضع هاتين النظريتين أمّا الأولى فخصّ بها كتابه دلائل الإعجاز في حين جاءت النظرية الثانية في مباحث كتابه " أسرار البلاغة".

و قبل أن نتحدث كمّا جاء في الكتابين من مباحث بلاغية، يجدر بنا الإشارة إلى أن البلاغة حتى عصر الجرجاني لم تكن قد عرفت التماسك التي هي عليه الآن، و يظهر لنا ذلك جليا في كتابه الأول الذي يسمّى مباحثه: مباحث بيانية، إذ يقول: إنّك لا ترى علما هو أرسخ أصلاّ وأسبق ذُرعاً، و أحلن لحنا، و أعذب ورداً، و أكرم نتاجا، و أنور سراجا، من علم البيان"[2] وحين أتى على ذكر المجاز و الاستعارة و الكناية و التشبيه، إنما جعلها في ثنايا تفسيره لنظرية النظم، كما اقترنت كلة البيان في الكتاب بكلمة ثنايا تفسيره لنظرية النظم، كما اقترنت كلمة البيان في الكتاب بكلمة الفصاحة و البلاغة، كما أن كتابه الثاني " أسرار البلاغة" فقد جاء خالصاً لمباحث البيان، [3] و يتضح من ذلك أن الجرجاني كان يرى بأن علوم البلاغة علم واحد تتشعب مباحثه، إذ سمى علم المعاني في كتابه " الدلائل" باسم النظم[4] و أفرغ فيه جهده ليثبت أن الشأن في الكلام للنظم لا للألفاظ المفردة ، و النظم ليس إلا توخي معاني النحو على معنى أن نضع كل كلمة في المكان الذي يتطلبها و السياق الذي يقتضيها ، و " و ليس النظم إلا أمراً يخص اللفظ وحده و لا هو كذلك يخص المعنى وحده، و

[1] – نفس المرجع، ص 101

[2] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح، محمود محمد شاكر، مكتبة الحانجمي، القاهرة، ص .

[3] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 161.

[4] – ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

إنما هو ترتيب المعاني في النفس" [1] ، كما أنه لم يكتف بالتقرير اللفظي و لكنه جاء بكثير من الدراسات الميدانية فذكر التعريف و التنكير و التقديم و التأخير والحذف و الفصل و الوصل بالإضافة إلى حديثه عن الكناية و الاستعارة، و المجان العقلي لإثبات ما يطبق على العبارات الحقيقية في نظرية النظم يطبق على هذه الاستخدامات التخيلية، و الحقيقة أن مرحلة النظم هاته تعد محور الدراسات البلاغية التي جاءت بعد ذلك، و هي الأصل الذي بنيت عليه البلاغة إلى أن استوى عودها و استقام .

أما كتاب " أسرار البلاغة" فقد تحدث فيه عن أصول علم البيان، من حقيقة و مجاز و استعارة و تشبيه و قد أطال الحديث عن التشبيه و التمثيل و فرق بينهما و المجاز و الاستعارة و الفرق بينهما ، و أقسام الاستعارة[2]، و التي شكلت لبّ علم البيان كما عُرف فيما بعد .

فعلى نحو ما وضع نظرية المعاني، بنى نظرية البيان في أول بحث مستقل في تاريخ العربية، فعلى الرغم من أن كل الفصول التي جاء بها الجرجاني في كتابه قد سبقه إليها البلاغيون القدامى إلا أنهم لم يبحثوها على نحو دقيق كما فعل بها عبد القاهر[3] فقد استطاع أن يبلغ القمة في التأليف البلاغي الذي يصوغ من البلاغة علماً دون أن يتنكر للذوق و حس الجمال، فكان بذلك بحثا في البيان العربي غير مسبوق.

هكذا إذن بنى لنا عبد القاهر الجرجاني صرح البلاغة العربية الأول في صورة مستقلة خصت بتأليف محكم و ضبط دقيق لكل شواردها ، و سيلحظ الباحث أن هذه المرحلة التي ميزها الجرجاني ثم عنيت بدارسي البلاغة الآخرين و أعلام كانت لهم إضافات جليلة، لا سيما تلك التي هدفت إلى تيسير البلاغة لدارسيها في بيئاتها المختلفة و سعت إلى إيضاح مشكلاتها و تحليلها على نحو دقيق ... لا يمكن اهماله أو تجاوزه حين النظر في تاريخ تطور البلاغة عبر العصور.

[1] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترة عليها ص 134.

[2] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 190.

[3] – ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص 133.

و من هؤلاء الأعلام:

3-2- محمود بن عمر الزمخشري (م338هـ)

والذي أضاف في تفسير القرآن في كتابه المسمى "الكشاف " مزيدا من التوضيح لقواعد علم البيان و أصوله خاصة في صور الكناية و الإستعارة و المجاز المرسل و العقلي، ما يثبت قدمه الراسخة في علم البلاغة تنظيرا و تطبيقا على السواء، فأفاد كثيرا من نظرية الجرجاني تطبيقا عملياً في تفسير آيات الذكر الحكيم[1]، و قدم لنا صورة رائعة لتفسير القرآن، أعانته في ذلك بصيرة نافذة و ثقافة واسعة حتى لنرى " أهل السنة يشيدون به و بتفسيره على الرغم من اعتزاله " [2]، و ليس غريبا عن أهل الاعتزال اهتمامهم بتفسير الإعجاز القرآني منذ القدم، و قد جعل الزمخشري من علمي المعاني و البيان أهم عدة لتفسير كتابه الغزير، و بذلك يكون أول من ميز هذين العلمين، كما أضاف الزمخشري العديد من الآراء فيما يخص علمي البيان و البديع فأعد بذلك لاكتمال الجذور و الفروع المختلفة لنظريتي المعاني و البيان.

4- مرحلة الجمود و تحديد المصطلحات

سبق لنا و قلنا أن الدراسات البلاغية قد ازدهرت و أينعت على يد الجرجاني الذي دقق الفحص في كل الملاحظات البلاغية و ذلك منتصف القرن الخامس هجري و بداية القرن السادس و مضت سنوات حتى توقف موكب الازدهار في البحث البلاغي، و خلف بعد علماء البلاغة أولئك "خلف أضاعوا الأصالة و لم يدركوا مكانة الذوق و الحس في البلاغة"[3]، فجردوها من آثار سلفهم ففرّعوا و قسّموا حتى تأتي البلاغة على أيديهم خالية في معظم الأحيان مما كانت مزدهرة به جافة لا روح لها، معقدة لا بيان يوضحها، مقيدة بحدود، و " إذا هي غادرتها فإلى جدل فلسفي، لا أثر للبلاغة الحية

[1] – ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص 134.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 220.

[3] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص 108.

فيهم"[1]، و هنا نأتي إلى ما سُمّي بعصر التلخيصات و الشروح وما ميزهما من تعقيد و جمود لفنون هذا العلم.

غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن السبب وراء ذلك إنما هو ما ران و غلب على تلك العصور المتأخرة من أغراض الجمود الفكري التي لم تصب البلاغة فحسب بل تجاوزتها إلى الأدب شعره ونثره ، و بالتالي فقد أسهم أدباء ذلك العصر بما أمدوه من أدب هزيل و ذوق سقيم في تأخر البلاغة ، و منه يمكننا القول بأن البلاغة في هذه المرحلة لم يدخل على مباحثها مادة جديدة تثريها و تبقيها مطردة النمو و الازدهار، و سنأتي على تفصيل هذه الملخصات و الشروح .

لقد أخذ علماء هذا العصر يشرحون ما كتبه السابقون و ما استوعبوه تنظيما و تحديدا، تقسيما و تفريعا، و لعلنا " لا نغالي إذا قلنا أنه لم يأت بعد عصر الجرجاني، و الزمخشري من فهم البلاغة فهما دقيقا، و إن الذين جاءوا من بعدهما إنما كان عملهم – في بعض الأحيان- تلخيصا أو شرحا و إنهم لم يزيدوا في فهمهم البلاغة و شرح فنونها شيئا ذا بال "[2]

و لقد بدأت أولى التلخيصات بما قامع به:

4-1 – الفخر الرازي (م 544هـ) " كتابه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" :

الذي عمل على تلخيص كتب الجرجاني تلخيصا أخذ يبتعد بالبلاغة عن النصوص و يقترب بها من الحدود و القوانين و الأحكام و القواعد، و واضح من عنوانه أنه يعمد إلى الاختصار، فكان تنظيما و تبويبا بما كتبه الجرجاني في صورة تنضبط فيها " القواعد البلاغية و تنحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقا"[3]، مما جعل كتابه عبارة عن قواعد جافة تبتعد عن الدراسة البلاغية التي يميزها حضور

[1] – المرجع نفسه، ص.ن.

[2] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة ، ص 110.

[3] ضوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 275.

الذوق و الجمال و الشعور، بل و جعله في أسلوب علمي صرف كثرت فيه التقسيمات و انبسطت الحدود و التعريفات الأمر الذي سار بالبلاغة نحو الجمود الذي تحكمه أقيسة منطقية فلسفية صارمة.

4-2سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن مُحَمَّد السكّاكي 626هـ

و استكملت البلاغة تقعيدها على يد السكاكي وما جاء به في "مفتاح العلوم " من تقييم لعلوم البلاغة فوضع فيه حدودا صارمة ، إذ خصّص القسم الثالث من كتابه لعلم المعاني والبيان ، ولعل هذا التغيير الوحيد الذي أحدثه حين نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل علم البيان إلى فاتحة مختصرة[1] ، ونظر لعلمي المعاني والبيان على أنهما مرجع البلاغة، وإلى الفصاحة على أنها مرجع للمحسنات البديعية ، ومع اعترافه بأن هذه المحسنات البديعية توابع للمعاني والبيان، فإنه جعلها علما مستقلا سماه" البديع"، وبذلك " مهد لأن تصبح البلاغة العربية متضمنة لثلاثة علوم "[2]، وقد سار العلماء من بعده على هذا التقسيم الذي استقرت عليه البلاغة، واعتبر الصورة النهائية التي جمدت عليا البلاغة العربية. وبقي مفتاح العلوم محورا للتأليف البلاغي، فظهر حوله عدد من عتب الشرح والإيضاح والتلخيص والتهذيب و قبل أن نعرج على هذه الكتب، نودّ أن نشير إلى ماقاله الباحث الدكتور فضل حسان عباس الذي التمس العذر للسكاكي فقال" ... لا ينبغي أن ننسى ولا يجوز أن ننسى أن البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدّد لها مصطلحاها تحديدا تاما، ومن يفصل مسائلها ويفصل بعضها عن بعض، وتلك الحسنة التي لا ينبغي أن تغفل "[3]، ويضيف مستطردًا "... ويظن الكثيرون أن السكاكي قد أقحم المسائل البلاغية بالقضايا الفلسفية، على معنى أنه خلط المباحث هذه بتلك، وهذا صحيح، و لكن من حيث الأسلوب، أي أن الطريقة التي اتبعها السكاكي في دراسة البلاغة، تصلح لأن تدرس بها الفلسفة، ولكنه لم يرجع البلاغة العربية إلى أصول يونانية ، فالمباحث التي ذكرها في القسم الثالث من مفتاحه عربية الأصالة لكنه فلسفها من حيث التبويب

[1] – ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص232.

[2] – المرجع نفسه، ص ن.

[3] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص136.

والتنظيم"[1] .كما يذهب شوقي ضيف إلى أن مؤلفه كان أكثر دقة وضبط للمسائل البلاغية من تلخيص الرازي ورأى بأنه من الرغم من استقامة تلخيصه وقدرته البارعة من التبويب والإحاطة بكل الأقسام والفروع إلا أن ذلك " لم يُشفع عنده بتحليلات الجرجاني والزمخشري التي كانت تملأ النفوس إعجابا" [2].

ثم يشبه تلخيصه بغابة لا يمكن سلوكها إلا بمصابيح المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، ذلك "أنه استعان في عمله بالمنطق، وما أثاره المتكلمون والأصوليون والنحاة من آراء"[3] ،وكان هذا رأي عديد من النقاد في مذهب السكاكي في مؤلفه.

ثم مضى علماء البلاغة ينحرفون عن طريق السكاكي بشروح وتلخيصات مبسطة لايمكن اعتبارها أكثر من مجرد اهتمام وعناية بما جاء به عبد القاهر والزمخشري، وكان من شراح السكاكي ماقدمه قطب الدين محمود بن مسعود الترمذي ، وكذلك عماد الدين الكاشي وسعد الدين بن مسعود التفتازني والسيد شريف الجرجاني وغيرهم كثر[4]، مما لا يسعنا أن نذكر مساهماتهم جميعهم في هذا المقام، ولكن سنأتي على ذكر أهم هذه الشروح التي حاول كل واحد من أصحابها أن يضيف من أصباغ المنطق و الفلسفة وعلم الكلام ما جاءت به ثقافته:

أ/المثل السائر في أدب الكاتب لضياء الدين بن الأثير:

فقد كان ممن انحرفوا عن طريق السكاكي، ذلك أن عمله البيان تتسع عنده لتشمل مباحث المعاني والبديع[5]، وكنه يجعلها مرادفة للبلاغة، كما لم يكن ملما بكل ماجاء به الزمخشري والجرجاني، ولم يفد منها، إلا أنه يعد من أحسن ما أُلف منذ القرن السادس هجري.

---

[1] – للاستزادة، ينظر: المرجع نفسه، ص136.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص288.

[3] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة ،ص35.

[4] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ،ص313.

[5] – ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص234.

ب/ الخطيب القزويني (ت 739 هـ):

والذي نجده قد استبعد تعقيد السكاكي وحشوه وتطويله، كما وضح غامضه بالشرح، فلم يلتزم بنصب السكاكي، بل أضاف إليه من آرائه وآراء العلماء السابقين [1] وقد استهل كتابه التلخيص بمقدمة في الفصاحة والبلاغة، وثلاثة فنون :

الفن الاول: عقده لمباحث علم المعاني، والثاني لمباحث علم البيان، أما الثالث لمباحث علم البديع.

ثم ما لبث أن ألف كتابا أخر أسماه "الإيضاح" الذي بسط فيه الحديث عن بعض قضايا التلخيص على أن "الإيضاح" الجديد لم يخل من بعض العسر، ولم ينأ عن الأسلوب الفلسفي" وكما أقبل "القز ويني" على "مفتاح السكاكي " تلخيصا وتوضيحا ، أقبل كثيرون من رجال البلاغة شرقا وغربا على "تلخيص القز ويني" حفظا وشرحا ونظما ، "وكأنهم رؤوا فيه خير مرجع لقواعد البلاغة"[2] ، ومن نظمه شعرا : جلال الدين السيوطي وسماه "نظم الجمان"، ووضع له شرحا سماه "عقود الجمان، " وخضر بن مُحَمَّد" وسمى نظمه "أنبوب البلاغة" "وعبد الرحمن الأخضري" وسمى نظمه "الجوهر المكنون في ثلاثة فنون".

وممن قام باختصاره: عز الدين بن جماعة وأبرويز الرومي، وزكريا الأنصاري ، ومن شرحه مُحَمَّد بن مظفر الخلخالي في "مفتاح تلخيص المفتاح" وأيضا بهاء الدين السبكي (373هـ) وسمى شرحه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، وكذا سعد الدين التفتازني وقد وضع له شرحين: الشرح الكبير والشرح الصغير للتلخيص[3] ، هؤلاء الشراح كما يلاحظ من علماء القرن الثامن هجري، واستمر الحال في الاهتمام بشرح تلخيص القز ويني ، لنجد عند علماء القرن الثاني عشر هجري من قام بشرحه مثل: أبو يعقوب المغربي (1110هـ) صاحب كتاب "مواهب المفتاح في شرح تلخيص

[1] – ينظر محمد مصطفى هدارة، في البلاغة العربية، ص30.

[2] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة،ص113.

[3] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية،ص250.

المفتاح"[1]، ويمكن القول أخيرا أن أطول هذه الشروح كان لجهاد الدين السبكي وأهمها كان للتفتازني الذي عدّه القدماء خير شروح التلخيص. ولعل ما يلاحظ على من شرحوا تلخيص الخطيب، أن معظمهم كانوا متمكنين من علوم الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو والبلاغة ، و"يبدوا من شروحهم أنهم لو يكونوا يهدفون إلى الإعلان عن مدى إلمامهم بالفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو وغيرها، ذلك أنهم أقحموا الكثير من قضايا هذه العلوم على البلاغة إقحاما، وبهذا أضافوا إلى ميراث البلاغة الصعوبات التي وضعها من تقدمهم عن طريق البلاغة العربية صعوبات أخرى أشاعت اليأس في نفوس الراغبين في تعلمها"[2]

ولأجل كل هذا آلت البلاغة في تلك العصور إلى الجمود، إذ غلب على أساليبها العجمة وطغى عليها التعقيد والغموض، مما لم تكن هي الأساليب التي يجدر أن تكتب بها بلاغتنا العربية التي تعكس ميزات وخصال وثقافة اللسان العربي المبين .

حوصلة:

لقد حاولنا من خلال هذا المدخل الذي قدمناه أن نعود بالبلاغة العربية أو بالبيان العربي إلى بدايته الأولى، محاولين أن نستنبط أهم العوامل والأسباب التي هيأت المناخ لنشأة التفكير البلاغي عند العرب، ومحاولين أيضا استجلاء أهم الكتب البلاغية التي أُلّفت في هذا الحقل، والتي حفظت لنا أهم وأبرز المراحل التي مرت بها بلاغتنا العربية أثناء تطورها مذ أن كانت ملحوظات منثورة في الكتب إلى أن بلغت أوج ازدهارها مع الجرجاني، ثمّ ما آلت اليه من جمود أوقف باكورة عطائها.

ولقد توصلنا بعد كل هذا إلى جملة من النقاط يمكن أن نستعرضها كالآتي:

1/- رأينا أن البلاغة قديما لم توجد بشكلها النظري، أي شكل القواعد والأحكام والحدود والتعريفات، بل إنها وجدت بشكل عملي جسّده كلام العرب، وما ميّزه من حسن البيان الذي

[1] – ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية ، ص251.

[2] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية ، ص251.

جعلهم يميزون بين صور الكلام، مبدين بعض الملاحظات البلاغية التي نمت بعد ظهور الإسلام ونحت منحى يتصل بالقرآن وإعجازه، ثمّ لتتسع وتدق شيئا فشيئا في العصر الأموي والعباسي بفعل ارتقاء الحياة العقلية، أي أنها سارت متطورة عبر تاريخ طويل منذ أن كانت صفة الكلام الجيد والقول المبين إلى أن أصبحت ملاحظات دقيقة مبثوثة في ثنايا مؤلفات الحقل البياني، ثم إلى أحكام وقواعد ممنهجة علميا. لنستنتج أن العوامل الأساسية التي ساهمت بطريقة مباشرة في بروز هذه الملاحظات خلال هذه المرحلة، إنما هي عوامل داخلية وثيقة الإتصال بنسق المجتمع العربي وبنيته، وما توالى عليه من أحداث وتحولات مسّت جوانبه الثقافية والسياسية والعقائدية على وجه الخصوص ، ونقصد هاهنا فئة المتكلمين الذين "اتخذوا من دراسة البيان أساسا اعتمدوا عليه في دراسة إعجاز القرآن وسبيلا إلى فهم معانيه وأحكامه، فعملوا على استخراج فنون بيانية جديدة أضافوها إلى جهود سابقيهم "[1].

ومنه يمكن القول بأن أصحاب تلك الدراسات القرآنية قد خصّوا هذا البيان، وكانت جهودهم كبيرة في سبيل إعلاء صرح البيان و البلاغة.

2/- إن تلك الملاحظات البلاغية لم تنشأ مستقلة عن غيرها من العلوم، بل إنها ترعرعت في أكناف القرآن واللغة والأدب والنقد، فكان للحدث القرآني وحركة جمع اللغة وتقعيدها كبير الأثر في هذه النشأة، إذ لعبت بيئة اللغويين والنحاة، وبيئة المتكلمين لاسيما المعتزلة دورا أساسيا

فجاءت البلاغة موضوعا تناوله من بحث في إعجاز القرآن- كما أسلفنا الذكر- ومن بحث في أساليب العربية وطرق أدائها، ومن بحث في البيان العربي وصفاته، وأيضا من عمل على المفاضلة بين طبقات الكلام وتميز جيده من رديئه، فأخذت كل طائفة تتناول البلاغة من الجانب الذي يعينها. وبفضل جهود هؤلاء العلماء قامت علوم البلاغة العربية بأقسامها وفروعها وفنونها المختلفة.

[1] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص40.

3/- يشير الدكتور "حمادي صمود" إلى أن انصباب البحث البلاغي على القرآن الكريم والشعر أدى إلى اتجاه البلاغة عند العرب وجهة تختلف تمام الاختلاف عمّا وجدت عليه عند سائر الأقوام خاصة بلاغة اليونان، ذلك أنها لم توظّف أساسا للإقناع ، بل لدراسة خصائص الكلام الأدبي . مما جعلها شديدة الالتصاق والالتحام بالنقد[1]. وهذا صحيح فالمتبع لمسار البلاغة وتطورها لاسيما في مرحلتي وضع الدارسات المنهجية والازدهار، يدرك تماما ذلك الإدراك، وذلك بما حملته تضاعيف الكتب القيمة التي وصلتنا حول علم البلاغة العربية وما اجتمعت فيها من مادة علمية غزيرة موزعة على فنون البلاغة المختلفة، ولعل هذا ما ميّز بلاغتنا العربية المبينة عن سائر علوم الأقوام.

ويبقى لنا في الأخير أن ننوه بأن ولوجنا إلى هذا العمل بمدخل حول البلاغة العربية، إنما كان على أساس أن البلاغة والبيان مصطلحان مترادفان، فنشأة البيان من نشأة البلاغة، ولذلك عرجنا على مراحل تطور البلاغة إلى أن وصلنا إلى تقسيمات علوم أو فنون البلاغة المتعارف عليها حديثا وهي " البيان والمعاني والبديع، والذي يهمنا منها : علم البيان : نشأته وتأسيسه ، ولأجل ذلك وسع عملنا ب: { المنجز البياني بين الحافظ وابن وهب: قراءة في أطروحة المعاصرين }.

[1] – بنظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه و تطوره إلى القرن السادس هجري، منشورات كلية الأداب، تونسنط1994،2،ص132.

الفصل الأول

" المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب"

" المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب"

إن لعلم البيان منزلة عظمى في سماء البلاغة العربية، فهي المحور الرئيسي لها، و ذلك لتشعب مباحثه و كثرة أبوابه و فصوله التي من نشأتها أن تبرز المعنى و تظهره في أبهى صورة، لما يمتاز به هذا العلم من ايراد المعنى في نفسه، ليتغير منها ما يشاء في اظهار مقاصده و معانيه، فيما أن البلاغة تعني الوصول إلى الغاية كان هدفها إيصال المعنى واضحاً كاملاً إلى ذهن القارئ أو السامع " ذلك بتعبير الكاتب عن معناه بعبارة واضحة خالية من اللبس، فإنه بذلك يكون قد أجاز التعبير عن المعنى، و لكننا نربط البلاغة بالجمال الأدبي، و هذا التأثير استحضار الصور البعيدة و ربط المعاني المجردة بالمحسوسات و هذا هو موضوع علم البيان"[1] فهذه الخاصية مكنته و جعلته يتميز عن سائر علوم البلاغة.

وأول ما يمكن أن نتطرق له هو محاولة إظهار بعض ما يزخر به مصطلح البيان من دلالات ومفاهيم، و ذلك بالرجوع إلى ما كتب بخصوصه في المصادر التراثية الرائدة .

معاني البيان اللغوية:

ورد في المعاجم العربية، البيان بمعنى ما تبين به الشيء من دلالة و غيرها " و هو علم يعرف به إيراد المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[2]،و نجد أيضا البيان بالمعنى " قال ابن فارس: الباء و الياء و النون أصل واحد ، و هو بعد الشيء و انكشافه و أدق منه قول الراغب: يقال: بأن كذا: أي انفصل و ظهر ما كان مستترا منه، و لما اعتبر فيه معنى الانفصال و الظهور استعمل في كل واحد منفردا، فعيل للنبر البعيد، القدر، يبنون... و بان الصبح، ظهر"[3] و هنا البيان بمعنى الإظهار و الانفصال. كما نجده أي البيان يدل على الفصاحة و الوضوح " البيان من بان الشيء: اتضح. و

[1] – محمد مصطفى هدارة، في البلاغة العربية علم البيان، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1 ، ص 6.

[2] – الخطيب، القروبي، التخليص في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، ط1، 1904، ص 235.

[3] – الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية و بلاغية في كتاب البيان و التبيين، دار القلم للنشر و التوزيع، ط2، ص 112.

البيان: الفصاحة و اللسن، كلام بين: فصيح. و البيان: الإفصاح"[1] و البيان هنا يعني الفصاحة و اللسن يقصد به إظهار المقصود بأبلغ لفظ بشرط توفر الصدق. كما نجد أن أقدم تعريف للبيان كان لثمامة و ذلك لما ورد في قول " و لعل أقدم تعريف للبيان قول ثُمامة: قلت لجعفر بن يحي ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، و يجلي عن مغزاك و تخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكر. و الذي لا بدّ منه أن يكون سليماً من التكلف بعيدا من الصفة، بريئاً من التعقيد، غنيا عن التأويل"[2] و هو يعنى بالبيان هنا خروج اللفظ من التعقيد والمعوقات التي تحول بينه و بين الفهم. و غير بعيد عن هذا يرى ابن رشيق أن البيان بمعنى الكشف و الخلو من التعقيد " البيان الكشف عن المعنى حتّى تدركه النّفس من غير عُقلة، و إنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل و لا يستحق اسم البيان"[3] و لكنه يدرج البيان على أنه فن من الفنون كالمجاز و الاستعارة و التشبيه و الإشارة و التجنيس.

كما نجد أن الشافعي أيضا عرف البيان على أنه" و البيان اسم جامع لمعاني مجتمعه الأصول متشعبة الفروع: فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القُرآنُ بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، و إن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض ، و مختلفة عند من يجهل لسان العرب[4]، لقد عرف الشافعي البيان " بأنه اسم جامع لمعان مجتمعه الأصول متشعبة الفروع و غير بعيد عن هذا، يعرف أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي" اعلم أنّ البيان عبارة عن أمر يتعلق بالتعريف و الإعلام، و إنما يحصل الإعلام بالدليل، و الدليل محصّل للعلم، فهاهنا ثلاثة أمور: إعلام و دليل يحصل به الإعلام، و علم يحصل من الدليل"[5]، و المقصود هنا حيثما يكون البيان يكون

[1] – انعام قوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع و البيان و المعاني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط1، ص 269.

[2] – إنعام قوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، البديع و البيان و المعاني، ص207

[3] – المرجع نفسه، ص ن

[4] – محمد بن ادريس الشافعي، الرسالة، دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع، ص21.

[5] – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، الجامعة الإسلامية ، كلية الشريعة المدنية المنورة ج3، ص 61.

المعنى، و حيث يكون المعنى يكون البيان ، فتحقق الواحد من الاثنين يستوجب بالضرورة تحقق الآخر.

و نظرا لما اكتسبه البيان من أهمية بالغة، جعله يستقطب الاهتمام الفكري للجاحظ و أضحى المعادل الموضوعي له في علاقة اللغة بالمتكلمين في السياقات المعنية، و أكد الجاحظ في أكثر من مناسبة على مدى ثراء مصطلح البيان بالمعاني، معان تحليل لا على اللغة الطبيعية بمستوياتها العادي و الفني فقط، بل تتعداهما لتحليل كل الأشياء الدالة أكان ذلك من منظور المرسل أو المتلقي فالبيان عنده بصفة عامة عبارة عن " اسم جامع كل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير "[1].

فنظرا لأهمية البالغة التي شغلها البيان عند الجاحظ نجده قد خصص له كتاب كامل تحدث فيه عنه و هو "البيان و التبيين" الذي سنتطرق له لاحقا ، و الآن سنحاول التعريف بالجاحظ والتعرف على أهم العوامل التي ساعدت في جعله يحتل هذه المكانة المرموقة في أوساط علماء الفكر و الثقافة

1-1 عصر الجاحظ و حياته :

لقد رأينا أنه قبل الحديث عن ترجمة حياة أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ من الضروري أن نتكلم عن القرنين الثاني و الثالث ، باعتبار فكر الجاحظ كان نتاجا لهذه البيئة العباسية و بالتالي نضعه في إطار عصره ، فما هي أهم مميزات و خصائص هذه البيئة التي نمت فيها هذه الشخصية ؟.

1-1-1عصره:

امتاز العصر العباسي الأول (132-232) بقوة الخلافة و عظمة الخلفاء و مجد الدولة متأثرا بالحضارات السابقة ، و ظهرت فيه الشعوبية ، و في هذا العصر ولد الجاحظ " فلما جاءت الدولة العباسية بحرية الشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم ،كان الفرس أول من استجاب للدعوة

[1] – الجاحظ، البيان و التبيين، تح عبد السلام محمد هارون، در الجيل ص 76.

العباسية و اقتدي بهم كل من تطاول إلى شرف أو سمعة الجاه في هذه الدولة "[1]، و قد عُرف العصر العباسي الأول بالعصر الذهبي للأمة العربية في حكم هارون الرشيد و ابنه المأمون .

أ/– البيئة السياسية :

لقد ازدادت جذور التواصل في هذا العصر بين الثقافة الإسلامية عن طريق التزاوج بين العرب و غيرهم ، و السفر و الترجمة ، بالإضافة إلى توسع التجارة في العصر الأول من الدولة العباسية لما نشطت الزراعة و مختلف الصناعات كما "أخذ العباسيون يرفعون الراية

السوداء رمزا لسلطانهم من مكان إلى مكان و النصر حليفهم و إذا بلاد الشام كلها تفتح بجيوش الثائرين . و انتهج العباسيون نهج القياصرة و الأكاسرة في تنظيم دولتهم و مالوا إلى الترف معتمدين في ذلك على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال "[2]. كما انتشر في هذا العصر تجارة الرقيق ، و ظهرت أيضا الزندقة التي كان يمثلها بشار بن برد و غيره و ظهر الزهد و النساك والوعظ و الإرشاد .

ب/– البيئة الثقافية :

الثقافة في هذا العصر كانت قائمة بتفاعل عدة عوامل اجتماعية و سياسية و فكرية التي ساعدت على قيام الدولة العباسية ، و هذه لم تكن امتدادا للإرث العربي بل كانت مدعومة بثقافات خارجية اقترنت مع الثقافة العربية حيث صارت البيئة الثقافية من أقوى العوامل في النهضة العباسية إذ أخذ الخلفاء العباسيون يشجعون الحركة العلمية في نواحيها المتعددة ، و يمدونها بمالهم و جاههم و قد بالغوا في إكرام الأدباء فجالسوهم و ولوهم أحيانا المناصب العليا ، ثم حذا الأمراء و الوزراء حذو الخلفاء في أكبر مدن الدولة و كانوا يتنافسون في ذلك كما يتنافسون في فتح دور العلم"[3].

1 –2–1 حياته :

[1] – العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ط6، ص23

[2] – شوقي ضيف، العصر العباسي الأول ص19.

[3] – شوقي ضيف، العصر العباسي الأول ،ص102

أ/ مولده و نشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الشهير بالجاحظ[1]، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي بروزهما و نتوئهما[2]، كبير أئمة الفكر و الثقافة ، و كبير شيوخ اللغة و الأدب والنقد والبيان ، فقد جعل العلم مادة لأدبه ، و هو أيضا إمام من أئمة المعتزلة و مؤسس لفرقة من المعتزلة سميت الجاحظية[3]. و انطلاقا من البديهية التي نرى أن نتاج الكاتب أو المفكر خاضع بطبيعة الحال إلى بيئته و ظروفه و ثقافته .

ولد الجاحظ في البصرة التي وصلت إلى أوج ازدهارها حتى أصبحت من أعظم قبل العلم و بيئة من أخصب البيئات الثقافية التقى فيها العلماء و الأدباء و اجتمعوا بالمربد ، أما تاريخ ميلاده كان سنة (776م-160هـ) أما وفاته كانت سنة (869م-255هـ) " و قد اختلفت آراء المؤرخين في تاريخ ولادته و موته إلا أن معظمهم اتفق على ما ذكرناه "[4]، وقد نشأ فقيرا بعد وفاة أبيه ، طلب العلم في سن مبكر ، فقرأ القرآن و مبادئ اللغة على يد شيوخ بلده ، و لكن اليتم حال دون تفرغه التام لطلب العلم ، فصار يبيع السمك و الخبز في النهار ليعين نفسه و أمه على أعباء الحياة و يكتري دكاكين الوراقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته[5]، و نتيجة هذا " فما كاد يجتاز مرحلة الطفولة في أحد الكتاتيب ، حتى تلقن الفصاحة شفاها"[6] ، فبذلك عمل لمستقبله ونجح بعقل منفتح و رؤية صافية.

لقد عاصر الجاحظ اثنا عشر خليفة عباسيا ، و بذلك تم تقسيم حياة الجاحظ إلى شقين الأول استقبل فيه الجاحظ الحياة و العوامل و الأسباب المختلفة التي هيأت لشخصيته فكان مثابرا على

[1] – خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط9، ج5، ص75.

[2] – محمد علي زكي صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البان والتبين للجاحظ، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، ص28.

[3] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب، دار الجيل، بيروت لبنان ص555

[4] – جميل جابر، الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد،دار صادر بيروت، ص7

[5] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب، ص 553

[6] – محمد نبي حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مكتبة الطالب الجامعي،ط2، ص267

التحصيل حتى بلغ مرحلة الشباب و زامن ذلك العهد البصري ، أما عن العصر البغدادي فقد أفاد كثيرا من وجوده فيه و تابع دراسته في مجالس أعلامها ، فذلك العهد هو عهد الإنتاج [1]، أخذ علم اللغة العربية و آدابها عن أبي عبيدة و الأصمعي شيخ اللغة و الأخبار و النوادر ، و أبي زيد الأنصاري إمام اللغة و الأدب ، فهم أساطين الغلة و عظماءها ، و أخذ الدرس النحوي عن الأخفش الذي يعتبر سيد النحو[2]، و بهذا يكون الجاحظ قد استفاد كثيرا من نتاج العهد البغدادي

"كانت هذه الفترة من الزمان من أزهى الفترات علما و أدبا ... فيها نضجت العلوم و نشطت الترجمة عن الفارسية و اليونانية "[3].

ب/ ثقافته :

كان للجاحظ منذ نعومة أظافره ميل واضح و نزوع عارم إلى القراءة و المطالعة و ظل هذا الميل ملازما له طيلة عمره ، فكان لا يكتفي بقراءة كتاب أو كتابين في اليوم الواحد بل كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للقراءة ،هذا ما أكسبه ثقافة واسعة جدا جعلته دائرة معارف حية وكان بالإضافة إلى ذلك يملك مواهب عقلية و أدبية قل ما تجتمع في رجل غيره هذه المواهب أهلته لاحتلال هذا المنصب و لهضم تلك العلوم و الثقافات .

وكانت مصادر الجاحظ كثيرة منها ما طالعه من كتب العرب و اليونان و الفرس و الهنود وغيرهم [4]. فقد اتصل الجاحظ باليونان و ثقافتهم من كتبهم المترجمة عن طريق المتكلمين و مجالسة الكثير من المثقفين باليونان و تأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد ،"و لم يفتأ أن تأدب بآداب الفرس و حكمة الهند و فلسفة اليونان ومن ثمة كان فصيح اللسان ، واضح البيان ، غزير العلم "[5].

[1] – محمد علي صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين لجاحظ، ص30

[2] – المرجع نفسه، ص31

[3] – محمد نبي حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص266.

[4] – حنا الفاخوري، الجماع في تاريخ الأدب العربي، ص553.

[5] – محمد نبي حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص267.

أما أساتذة الجاحظ فهم عرب المربد الذي كان ملتقى للخطباء و الشعراء و للرواد ... ، فهو محلة عظيمة من محالّ البصرة و أيضا عن طريق التحاقه بالحلقات المسجدية التي كانت تجتمع لمناقشة عدد كبير و واسع من الأسئلة من قبل علماء يوزعون كلمة العلم على طلابه[1].

و بعدها قصد بغداد ليزيد من العلم و كانت بغداد في عهد الرشيد و ابنه المأمون في أوج تقدمها الاقتصادي و الثقافي و قد احتشد فيها العلماء كما احتشدوا في البصرة و الكوفة.

و بما أن الجاحظ كان رجل علم و فلسفة و فقه و أدب فهذا راجع إلى مذهبه العقلي في التفسير

أي تحكيم العقل ، فنجده عندما بلغ اعتنق مذهبه العتزالي أصحاب الرأي ، و كان لأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام شيخ المعتزلة أثر كبير في هذا التوجيه[2].و الجدير بالذكر أن للجاحظ فضل عظيم في نشأة البلاغة العربية و تطورها و اتخاذها صورة علمية ممنهجة ،كيف لا و هو قد أفنى حياته في التنقل من كتاب إلى كتاب إلى أن دفن تحت التراب .

ج/ آثاره :

لقد كان الجاحظ موسوعة معرفية متنقلة، و تعتبر كتبه دائرة معارف تنهل منها الأجيال السابقة و اللاحقة ، فلم نجد رجلا مثله في تعددية طاقاته ،خلف هذه التركة ثروة للناطقين بها ، و لوحة متنقلة مبدعة صادقة لصورة العصر الذي عاش فيه[3] ، فقد كتب في شتى المعارف و العلوم كتب في علم

[1] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العرب، ص553

[2] – المرجع نفسه، ص ن

[3] –محمد علي زكي صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التيين للجاحظ، ص42.

الكلام و الأدب و السياسة و التاريخ و الأخلاق و النبات و الحيوان و الصناعة و الفلسفة ... الخ و غيرها من الموضوعات .

تعتبر كتب الجاحظ موسوعة معارف بحق ، فهي تعكس صورة مجتمعه فتترجم أحوال البيئة في مختلف نزاعاتها و تشعباتها و عاداتها و تقاليدها ، و بذلك ترك آثارا فكرية و أدبية و دينية على أثر كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي ، وقد ذُكر للجاحظ نحو ثلاث مئة و ستين مصنفا في شتى فروع المعرفة ، و لكن الأيام قد عبثت بتلك الآثار و ضاعت معظم هذه الكتب فلم يصلنا إلا القليل ككتاب "الحيوان" و كتاب "البيان و التبيين" و" البخلاء" و "رسالة التربيع و التدوير"[1].

أما من ناحية تصنيف مؤلفات الجاحظ "إنه من الصعب جمع مؤلفات الجاحظ في فئات مرتبطة على حسب مادتها لأن الكثير منها مختلف الموضوعات ، متعدد المعاني "[2]

*** كتب في الإعتزال و الدين و الفلسفة :**

كتاب "فصيلة المعتزلة" وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال ، و كتاب "الاحتجاج لنظم القرآن" و كتاب "آي القرآن"، و كتاب "مسائل القرآن"، و كتاب "وجوب الإمامة"، و كتاب "الدلائل و الاعتبار على الخلق و التدبير"، يبحث هذا الكتاب في تعليل الأشياء الطبيعية و ما في الكائنات من دلائل على وجود الصانع[3].

***كتب في السياسة و الإقتصاد :**

كتاب "الاستبداد و المشاورة في العرب"، و كتاب " الرد على العثمانية"، و كتاب "أقسام فضول الصناعات و مراتب التجارات"، و كتاب "الزرع و النخل و الزيتون والأعناب"[4].

[1] – حنا الفاخوري،الجامع في تاريخ الأدب، ص556.

[2] – المرجع نفسه، ص 557.

[3] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب، 557.

[4] – المرجع نفسه، ص ن.

*** كتب الاجتماع و الأخلاق :**

كتاب "أخلاق الشطار"، وكتاب "الإخوان"، و كتاب "أخلاق الفتيان و فضائل أهل البطالة" و"كتاب "خصومة الحول و العور"، و كتاب "رسالة في إثم السكر" .

*** كتب في التاريخ و الجغرافيا و الطبيعة و الرياضيات :**

كتاب "الأخبار و كيف تصح"، وكتاب "الملوك و الأمم السالفة و الباقية" ، و كتاب "رسالة في الكيمياء"، و كتاب "المعادن"، و كتاب "نقض الطب"، و كتاب "في طبقات المغنين"[1].

*** كتب في العصبية و تأثير البيئة:**

كتاب "القحطانية و العدنانية"، كتاب "العرب و العجم"، و كتاب "العرب و الموالي" ، و كتاب "مفاخرة السودان و الحمران "[2].

***كتب في الحيوان :**

كتاب "الحيوان" ، و هذا الكتاب يعد من أهم كتب الجاحظ ،"فهو بحث ضخم يتناول فيه المؤلف و هو يصف طبائع الحيوانات ، شؤونا لا علاقة لها أبدا بعنوان الكتاب ، إنه موسوعة متنوعة تضمن بحوثا في التعاليم الدينية[3].

***كتب في الأدب و الشعر وعلوم اللسان و الأدبية :**

[1] – المرجع نفسه، ص ن.

[2] – المرجع نفسه، ص ن.

[3] – جميل جابر، الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد، ص15.14.

كتاب "البيان و التبيين"، و كتاب "المحاسن و الأضداد و العجائب و الغرائب"، و كتاب "عناصر الأدب".

و من خلال هذه المصنفات لآثار الجاحظ نستطيع القول إن أدب الجاحظ بقي و سيبقى معينا لمعارف مختلفة صورت لنا خفايا مجتمع ازدهر بشتى الأنماط و الفئات منم الناس ، فالإنسان الذي يطلع على مؤلفاته سيأخذه العجب ، و تستولي عليه الدهشة نظرا لتعدد هذه الموضوعات من دين و فلسفة و تاريخ و اجتماع و جغرافيا و أدب و فن ، و هنالك مطلب لكل طالب علم و طالب فكاهة، و كان الجاحظ أراد أن يكون حكيم العصر و أديبه ، ولهذا كان له في كل موضوع جولة[1].

د/ أسلوبه و منهجه :

و لأن لكل أديب تصور ذهني يترجمه بألفاظ و جمل و تراكيب ذات معاني ، يرتاح لها ، حتى يوصل أفكاره إلى القارئ ، و هذه الطريقة تدعى بالأسلوب .

فالأسلوب الذي انتهجه الجاحظ أسلوب يزاوج بين الجد و الهزل ، و الإقصاء و المراوحة "جمع الجاحظ في أسلوبه بين ما ورثه عن أسلافه من خصائص السجع و الازدواج و الإطناب ، و بين ما أملت عليه مواهبه، من ميل إلى التحليل و التعليل و الاستطراد و الاستقصاء و المراوحة بين الجد و الهزل و الواقعية الطبيعية التي لا تحفل بلوم اللائمين "[2]، و لأن الجاحظ عالم بمكنون النفس البشرية خبير بها و متقن ماهر في إرضائها ، لذلك فهو يراعي أحوال القارئ في عصره و يتحدث إليه بأسلوب طبيعي ، هو أسلوب الحياة في غير تقعيد ولا ضغط و لا تمويه[3]. و اتبع في ذلك منهجا واقعيا لأنه يرى الأدب صورة للواقع و لسان الحياة في شتى حركاتها و نزاعاتها ما أدى به إلى التدقيق في الألفاظ و اختيارها بحيث تتلاءم مع المعنى و هكذا ذهب الجاحظ في أسلوب كتابته إلى وضوح العبارة و دقتها و بسط العرض ، مبتعدا عن الخشونة و الغرابة ، فقد أحسن تصعيد الألفاظ ، فقدر

[1] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي،ص558.

[2] – محمد نبي حجاب ،بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص277.

[3] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي،ص558.

اللفظ بجرسه و وزنه ، و ما ينظر من تأثير توقيعها و تلحينها إذا قرنت إلى أختها و ميز الثقيلة من الخفيفة ، و المأنوسة من الوحشية ، فاختار ما يؤدي معناه حق الأداء ، و أنزله في منزله ن كما كان يميل إلى التقطيع و الإيجاز في العبارة و جعلها جملا قصارا متعادلة ن و يكثر من الجمل المترادفة إقرارا للمعنى في النفوس ، فأصبغ على الجملة روعة البلاغة و حسن النظم ، و هو يستطرد ما له صلة بالموضوع من لذيذ الأخبار و طريف الأحاديث، و متع النوادر ، فهو بذلك يرجعه إلى الجد و يدفعه إلى التفكير و التأمل من جديد حتى إذا أنهكه بسط له نادرة أو فكاهة تريح أعصابه[1]، و هذا الأسلوب المحدث و المميز للجاحظ لم يكن معروفا بين كتاب عصره أو فيمن سبقوه ،.و بذلك يكون الجاحظ أديب العربية الذي لا يجري معه أحد في عنان ، عاش عمره الذي ناهز المئة عام عاكفا على الآداب و العلوم ، فهو بلا شك معلم الأدب بما روى من أخبار الأدباء و آثارهم ، و هو أمير البيان العربي و شيخ النقاد .

2-1مفهوم البيان عند الجاحظ من خلال كتابه البيان و التبيين:

2-1-1 كتاب البيان و التبيين :

اشتهر كتاب البيان و التبيين بين أوساط العلماء و الأدباء إلى عصرنا هذا ، فهو الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة الجاحظ ، و هو أكثر كتبه تداولا و أعظمها نفعا، " هو بصفة عامة كتاب أدب يتضمن مختارات من ذاكرة الجاحظ العجيبة"[2].

***محتواه :**

[1] – المرجع نفسه،ص557.

[2] – محمد علي زكي صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ، ص111.

إن ما عرض له الجاحظ من موضوعات في كتاب البيان و التبيين هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون ، و هو من الموضوعات الرئيسة التي سيطرت على الكتاب ، و الذي نراه أول سفر في تاريخ البلاغة العربية من عمل أبي عثمان بن بحر الجاحظ ، المتكلم و موجه الفكر و الأدب العربيين لعدة قرون منذ نهاية القرن الثاني الهجري .

الكتاب من أواخر مؤلفات الجاحظ الكثيرة،" و قد وضع الجاحظ كتاب البيان و التبيين في أواخر حياته ، و أراد أن يكون وصيته الأخيرة للكتاب ، و الدليل على ذلك أنه لم يشر إليه في مقدمة كتاب " الحيوان"، حيث ذكر عددا كبيرا من كتبه و دافع عنها"[1].

و قد قصد من وراء هذا الكتاب التعريف بالبيان و البلاغة و الخطابة ، فذكر محاسنها و مساوئها و شرح فنونها و أنواعها .فبدأ بالاستفادة من العي ثم تطرق إلى خصائص اللسان ، و عاب التشدق و التقصير و انتقل بعد ذلك إلى الكشف عن الاختلاف في لغة العرب في استعمال الألفاظ حتى إذا اقترب من الخطابة تحدث عن عيوب اللسان مشيرا في حديث آخر إلى البلاغة ، فيبين علاقة البلاغة بالشعر و اللسان و في الصمت و الكلام المسجع ، مستشهدا بأدلة من القرآن الكريم و الحديث الشريف والشعر العربي القديم ، ثم انتقل للرد على الشعوبية مدافعا عن فصاحة العرب و في الجزء الثاني "أراد الجاحظ أن يرد على الشعوبية فقال: أردنا ، أبقاك الله ان نبتدئ صدر هذا الجزء من البيان و التبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر..."[2]، كما تطرق إلى الكلام عن الزهاد و النساك و عن كلامهم و مواعظهم، كما أن الكتاب لم يخل من نوادر الجاحظ التي شملت بعض الحمقى و المجانين .

و قد اعتمد الجاحظ في كتابه على أسلوب تحرير فيه من كل غموض و من التنميق اللفظي مع المحافظة على جزالته ثم مزج هذا الأسلوب بما تعلم و بما سمع من كلام عن أحوال الناس[3]، لهذا نجد

[1] –حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، 568.

[2] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي،ص570.

[3] – ينظر: عز الدين اسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، دار النهضة للطباعة و النشر، بيروت، ص139.

أن الجاحظ دعا في الكتاب إلى العناية بتنميق اللفظ . فالكتاب كما قلنا سابقا آخر ما ألف الجاحظ في حياته ، فهو يعتبر عصارة تجارب كونت ثقافة الجاحظ سواء كانت هذه التجارب فكرية أو أدبية أو دينية أو اجتماعية أو سياسية ، و هذا كان بتأثير العناصر المختلفة للثقافة البصرية في ذلك الوقت ، و حتى التأثيرات الوافدة على البصرة كان لها دور فعال في التكوين الثقافي والعلمي مما جعل منه أديبا مبدعا و ناقدا بارعا .

*** تاريخ و دوافع كتاب البيان و التبيين**

أ- تاريخ تأليف الكتاب:

يقول عبد السلام مُحَمَّد هارون محقق الكتاب :"أن الجاحظ قد ألفه في أخريات حياته ،حين علت به السن و قعد به المرض ن وذكر أنه ألفه بعد كتاب "الحيوان"، حيث عثر على نص قاطع في البيان و التبيين يدل على ذلك ، و هو قوله :" كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقتطفات الأعراب ، و نوادر الأشعار لما ذكرت عجبك بذلك فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله"[1].

و في موضع آخر يروي ما رواه ياقوت الحموي على لسان الجاحظ قوله: "أنه بعد قتل ابن الزيات جيئ بالجاحظ مقيدا إلى مجلس ابن أبي داود ، فجرت بينه و بين القاضي محاورة انتصر فيها الجاحظ كان من عاقبتها أن رضي عنه ابن أبي داود و أجازه و قربه إلى نفسه ، و هذا الخبر يبين لنا أن كتاب "البيان و التبيين" لم يظهر إلا بعد سنة 233 و هي السنة التي قتل فيها الزيات"[2].

ب/ دوافع الكتاب :

[1] – الجاحظ ن البيان و التبيين، ج1، ص15.

[2] – الجاحظ ، البيان و التبيين،ج1 ،ص 16.

جاء "البيان والتبيين" نتيجة أسباب و دوافع أسهمت في ظهوره و انتشاره حتى أصبح نورا في العالم أضاء الطريق إلى ما جاء بعده و كان منبعا و مصدرا للعديد من النظريات و الدراسات خاصة في الميدان البلاغي و اللساني ، و الدلالي ...الخ .

*** الدافع الأول :**

إن الحياة العقلية المقعدة التي فرضت على البيئات الإسلامية ، قد أوجدت فن المناظرة و الخطابة وهما اللونان الأدبيان اللذان كانا يمارسان في بيئة البصرة حيث نشرت الخطابة و الجدل والمناظرات بين طوائف الملل و النحل المختلفة ، و لما كان أصحاب الكلام قد أخذوا على عاتقهم أن يتصدوا لهؤلاء جميعا فقد حرصوا على إتقان هذين اللونين بحيث جعلوهما صناعة لها أصولها و قواعدها وهذه الأصول و القواعد تلتمس عن طريق تمثل أسرار اللغة العربية ، و إدراك مواضع الجمال ومواضع القوة فيها "[1]. معنى هذا أن الخطابة لم تعد كما كانت ، شيئا يجري به الطبع وتتدفق به العاطفة و يوحي به الوجدان ، و لا ريب أن ذلك يرجع إلى سيطرة الروح العقلية على تلك البيئات إذ كانت هذه الروح تستدعي دائما التأمل و النظر ، و مراجعة الأسباب و استخلاص النتائج "[2].

الدافع الثاني :

وهو الأبرز و هو الرد على الشعوبية التي كانت تعيب على العرب خطبهم و تقاليدهم في إلقاء تلك الخطب و منها الإمساك بالعصي ، و قد نص الجاحظ في أكثر من موضع من الكتاب على أنه نصب نفسه مدافعا عن فصاحة العرب ردا بدلك على اتهامات الشعوبيين[3]، فقد قال في فصل العصا في الفصل الثالث من الكتاب: "و نبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية و من يتحلى باسم

[1] – عز الدين اسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، ص142.

[2] – ينظر: طه الحاجري، الجاحظ حياته و آثاره، دار المعارف بمصر ،1969، ص427.

[3] – عز الدين اسمعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، ص141.

التسوية و بمطاعنهم على خطباء العرب ، بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون و المقفى و المنقور الذي لم يقف.."[1].

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك عوامل نفسية ذاتية داخلية ، فالجاحظ في تأليفه هذا الكتاب ربما كان يصغي إلى ذلك الصوت الذي يصيح من أعماق نفسه و يستجيب في نفس الوقت إلى ذلك الحنين الضيعي الذي يحاول أن يرجع به إلى أيامه الأولى و هي أيام تعبر عنه العصر الذهبي للبيان العربي و التي نشأ فيها الجاحظ ، و رأى فيها حلقات المتكلمين و مجالس المتناظرين تغمرهم الحماسة الدينية و روح المنافسة و المغالبة و الحرص على الإقناع و على الظفر بإعجاب هؤلاء النظارة الذين جاؤوا يستمتعون بمشاهدة هذه المناظرات ، و يلتمسون هذا النوع من اللذة الفنية فكان وضع الجاحظ لهذا الكتاب نوع من إرضاء ذلك الحنين الغالب عليه نحو دلك العهد المنصرم[2]

قيمته التاريخية:

بعد أن أعطينا فكرة عامة عن حياة الجاحظ و عصره و دوافع تأليفه للكتاب و كذا لغته وأسلوبه فيه و ما احتواه الكتاب من موضوعات و ما كانت للبيان و التبيين ، نتحدث الأن عن قيمته التاريخية و الأدبية و منزلته الرفيعة و شهرته الواسعة التي نالت إعجاب الكثير من العلماء والباحثين على مر الزمان ، و من بين هؤلاء المحقق مُحَمَّد عبد السلام هارون يقول فيه: "لعل ما نافلة الكلام أن أردد القول في عظيم أثر هذا الكتاب و يمكنني أن أقول في ثقة إنه لا يوجد أديب نابه في اللغة العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه ، و قلما نجد أديبا من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب"[3]، و يقول أيضا : " و كتاب البيان و التبيين لا جرم أنه أيسر كتب أبي عثمان وأكثرها تداولا و أعظمها نفعا ، و عائدة فيه تخرج الكثير من الأدباء ، و استقامت على الطريقة المثلى ، فهو أستاذ أرهاط

[1] – الجاحظ ، البيان و التبيين، ج3، ص05.

[2] – عز الدين اسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي،ص141.

[3] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1 ، ص14.

متعاقبة من المتأدبين و هو شيخ جماعات متتابعة ممن صقلوا ذوقهم بصاقل الجاحظ ، و رفعوا فيهم بالتأمل في فنه و عبقريته "[1].

و منه يمكننا أن نميز بذلك قيمتين مهمتين :

***القيمة الأدبية:**

إنه مصدر من مصادر تاريخ الأدب لما انطوى عليه من أخبار الشعراء أو الخطباء فقد حفل بالكلام عن مقامات الشعراء في الجاهلية و الإسلام ،كما حوى وصايا و رسائل و مراثي وأصافا و أدعية للأعراب و غير ذلك حتى عد من المراجع الهامة للأدب الجاهلي و الإسلامي و الأموي وأدب صدر الدولة العباسية ،. يقول أبو هلال العسكري :"وكان أكبرها و أشهرها كتاب "البيان و التبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، و هو لعمري كثير الفوائد ، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، و الفقر اللطيفة و الخطب الرائعة "[2].

***القيمة التاريخية :**

السمة الغالبة عليه أنه مظهر من مظاهر امتزاج الثقافات في عصر الجاحظ ، فكتاب "البيان والتبيين"، يظهر فيه الامتزاج واضحا قويا . حيث عرض أدب العرب و الفرس ، وحكم الهند ونصائح اليهودية و المسيحية إلا أن الحظ الأوفر كان للأدب العربي ، لأن ذلك هو موضوعه مبتغاه .

و هكذا كان لمنزلة البيان و التبيين و مقامه الرفيع الأثر الواضح في انتشاره ، و ذيوع صيته فكانت له المكانة الأكبر في توجيه التأليف العربي، فقد سار على دربه العديد من المفكرين .

مفهوم الجاحظ للبيان :

[1] – المرجع نفسه، ص05.

[2] – الجاحظ، البيان و التبيين ،ص05.

اهتم الجاحظ في كتاباته ب:"البيان" فكان البؤرة التي تصب فيها أفكاره و مواضيعه. ذكره في كتاب "الحيوان" ثم أفرد له بعد ذلك كتابا سماه "البيان و التبيين"، حمله تعريفات كثيرة من الوجهة النظرية ، و دعمه بالأقوال و الأشعار و الخطب ن من الوجهة التطبيقية موضحا في ذلك رؤيته ومذهبه في هذا الشأن .

و الجاحظ بصفته متكلما من شانه أن يبلغ الغاية التي يتوخاها في كلامه ، كان همه كبيرا بطرائق إيراد الكلام و سياساته التي تحق ذلك ، بما يتماشى و تعريفه ل"البيان"، و نظرته إليه ، مستندا في هذا إلى الجانب الديني و القرآن الكريم، من خلال الأهمية البالغة التي حظي بها "البيان"، فيه ،حتى سمي القرآن بيانا.

فالقرآن الكريم كان مدخله إلى تعريف البيان ، و قد تحدث عن ذلك في الصفحات الأولى من الكتاب مبرزا دور البيان ، يقول في تعليقه على الآية الكريمة :هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ [1]، "و مدح القرآن بالبيان و الإفصاح ، و بحسن التفصيل و الإيضاح و بجودة الإفهام و الحكمة و الإبلاغ"[2]،و لعل أشهر تعريف عنده "إنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان"[3]، فالبيان في هذا التعريف جاء عاما القصد منه الفهم والإفهام و يستدل على ذلك بقوله تعالى:وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ [4]، فكل رسول أرسل إلى قومه بلغته من أجل أن يفهمهم ما أوحي و أن يفهموا عنه، فهذا فيه وجه من أوجه البيان ، "و مدار الأمر و الغاية التي يجري إليها القارئ أو السامع إنما هو الفهم و الإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن

[1] – سورة آل عمران: الآية (138).

[2] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1،ص11.

[3] – المرجع نفسه، صج1، ص76.

[4] – سورة ابراهيم: الآية (04).

المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1]، و منه نستنتج أن مفهوم البيان في هاتين الوظيفتين الفهم و الإفهام ، و لا سيما الوظيفة الإقناعية للإفهام ، وجعل من أهم متممات الرسالة الإقناعية في الخطابة توافر الخطيب أو القائل أو المرسل على مؤهلات و صفات مقنعة ومستميلة ، و خلو آدائه من المعوقات التي تحول دون ذلك ن. في مقابل ذلك نجده اهتم بالجانب الآخر و هو المرسل إليه من خلال مكون اللغة ، الذي اشترط له الصواب و الاعتدال و بالتالي اعتبار أقدار المستمعين هي التي تحدد أقدار المعاني المرسلة و هنا تتعاظم و ظائفه الإبلاغية لتحقيق المقصد الأقصى المتمثل في البيان .

و يأتي البيان بمعنى البرهان و ذلك في قوله :" سأوضح ذلك بالبرهان القاطع و البيان الساحر"[2]،وهنا ورد البيان و البرهان مترادفين.

و يأتي بمعنى البلاغة حين يضع البيان مرادفا لها ، و يذكر ما في البلاغة المشوبة بالتكلف و البيان الممزوج بالتعمل ، من لائمة و مذمة ،كما نجده يساوي بين البلاغة و البيان في الوظيفة فيقول : "وكان عبد الرحمن بن إسحاق القاضي يروي عن جده ابراهيم بن سلمة قال: سمعت أبا مسلم يقول : سمعت الإمام ابراهيم بن مُحَّد يقول: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، و لا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع، قال أبو عثمان : "أما انا فأستحسن هذا القول جدا"[3].

و استعمل البيان أيضا بمعنى روعة التعبير و قدرة صاحبه على نصرة رأيه بالحق و بالباطل ،و قد استشهد على ذلك بقول مالك بن دينار : "ربما سمعت الحجاج يخطب بذكر ما صنع أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه و أنه صادق لبيانه و حسن تخلصه بالحجج"[4].

[1] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص76.

[2] – الجاحظ، البيان و التبيين ،ص 86.

[3] – المرجع نفسه، ص87.86.

[4] – المرجع نفسه، ص 394.

و خلاصة القول أن الجاحظ لم يثبت على تعريف واحد للبيان :

فمرة يعرفه تعريفا عاما بقوله : "و البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، و هتك الحجاب دون ضمير "[1]، و مرة أخرى يعرفه بقوله: "و الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هي البيان الذي سمعت الله عز و جل يمدحه ، و يدعو إليه و يحث عليه، بذلك نطق القرآن ، و بذلك تفاخرت العرب و تفاضلت أصناف العجم "[2].

و لكي نوضح هذا التعريف نقف على قوله : "إن جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني من أن المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم ، و المختلجة في نفوسهم ، و المتصلة و الحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، و بعيدة عن وحشية و محجوبة مكنونة، و إنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها ، و إخبارهم عنها ، و استعمالهم إياها ، و هذه الخصال هي التي تقربها من الفهم "[3].

و عنده أن عالم المعاني أوسع من أن تحيط به الألفاظ و الأسماء و في ذلك قال: " ثم اعلم – حفظك الله– أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، و ممتدة إلى غير نهاية و أسماء المعاني مقصورة ، معدودة ، و محصلة محدودة "[4].

الدلالات الخمس:

أصبح من الواضح أن أهم قضية عند الجاحظ هي البيان ، بل اضحى هذا الأخير عنده نظرية قائمة بذاتها ،يستوضح وسائلها و دعائمها الغاية التي يسعى إليها ، و أسال فيها الحبر الكثير، وبذل لها الجهد الكبير ، وتطرق إليها في معظم كتاباته ." و إن العالم في نظره ، رغم اختلاف مظاهره يعتبر

[1] – المرجع نفسه، ص76.

[2] – المرجع نفسه، ص75

[3] – الجاحظ البيان و التبيين ص 76

[4] – المرجع نفسه، ص ن

نظاما إشاريا ، و أنه ناطق بأجرامه و نباته و حيوانه ، أي أن ضابط الرؤية أو عاملها المشترك الذي يجمع مكوناتها المستعملة استقلالا ذاتيا هو البيان"[1].

فهكذا توسعت دائرة البيان لتلامس و تشمل العديد من الدلائل ، و لا تنحصر في جانب واحد أو تقتصر على دليل معين ن فتجاوز البيان بهذا ما كان سائدا في عصره و قبله. فلما كان خلق الله -عز وجل –كل شيء بعلم و حكمة ، كان من البداهة أن يكون لكل شيء أيضا معنى و لهذا جعل الجاحظ طرق الدلالة على المعنى خمسة اشياء حصرها فيها و لا تزيد و لا تنقص عنها ويقول في ذلك ، "و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ خمسة أشياء لا تزيد و لا تنقص : وأولها اللفظ ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة"[2].

أ/ **اللفظ** : يعتبر اللفظ عند الجاحظ وسيلة من وسائل البيان ، و هو يعني الكلام المنطوق الذي يعتبره إشارة و دلالة . فهو وسيلة تواصل و تعبير أتصل بين أفراد المجتمع ، و تعبير اشتق من وسائل البيان الأخرى ، فهو لك –أي الجاحظ- يجعل للغة مكانا متميزا بين مجموعة وسائل التواصل الخمس التي حددها فهو يعتبرها أكثر نفعا و أنجع بيانا[3]. و يعتبر الجاحظ البيان باللفظ كالبصر ، في حين أن من يعيبهم الكلام عمي لا يبصرون " البيان بصر و العي عمى"[4].

ب/ الإشارة :

و هي ثاني أنواع وسائل البيان عند الجاحظ ، فهي تدخل ضمن نطاق الجمالية الأدبية وبلاغة الإيحاء بالكلام الموجز ، فهي تعني الإشارة التي يقوم بها الإنسان بواسطة جوارحه و هو يريد أن يعبر بها عن مكنون نفسه و محتوى شعوره . و كون الإشارة لغة من لغات البيان فإن أداتها هي من أعضاء الجسم كالحواجب و الأجفان و الشفاه ، و الأعناق ، و الأيدي و على ذلك كله فهي ملازمة للبيان

[1] – ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ ، دار الثقافة، فيكتور هيجو، الدار البيضاء، ط1، ص 45.

2– الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص76.

3–ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص134.

4– الجاحظ ، البيان و التبيين، ج1، ص77.

باللسان و متممة له" و الإشارة و اللفظ شريكان ، و نعم العون هي له و نعم الترجمان هي عنه ، و ما أكثر ما تنوب عن اللفظ "[1].

ج/ العقد :

و نعني به البيان بالحساب ن وقد اضطرب بعض الباحثين في تحديد مفهومه ، فذهب إلى أنه الحساب بصفة عامة و الحقيقة أن العقد ضرب خاص من الحساب ، و ليس كل حساب ، لقول الجاحظ :"و أما القول في العقد و هو الحساب دون اللفظ و الخط ..."[2]، أما منافعه كمنافع اللفظ و الخط" و ان في عدم اللفظ و فساد الخط و الجعل بالعقد فساد جل النعم ، و فقدان جمهور المنافع"[3].

د/ الخط :

و نفى في كتابه الكلام و تدوينه ، و الخط عند الجاحظ ليس وسيلة للكتابة اليدوية فقط ، بل أنها تشتمل على كل ما اصطنعه الإنسان من وسائل خطية تدرك بواسطة العين في حدود سطح المكان[4]. ومن فضائله ما اختص به القرآن الكريم من ذكر و تعظيم ، أن العلم هو أحد اللسانين على أنه "القلم أبقى أثرا ، و اللسان أكثر هذرا"[5]، ومن فضائله كذلك قدرة الإنسان على تصحيح كلامه و تنقيحه في حين لا يستطيع شيئا من هذا مع وسيلة اللفظ" استعمال القلم أجدر أن يخص الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام "[6]، وفي حين أن اللسان مقصور على القريب الحاضر فإن القلم مطلق في الشاهد و الغائب ن وفي حين أن اللفظ لا يتعدى نطاقا محدودا جدا من مكان و زمان فغن الخط يتجاوز هذا الحيز إلى زمان و مكان .

---

[1] –ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ،123.

[2] الجاحظ، البيان و التبين ،ج1،80.

[3] المرجع نفسه ،ص ن.

[4] –ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ ،ص131.

[5] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص80.

[6]– المرجع نفسه ، ص ن

هـ/ الحال أو النصبة :

و نعني بها الحال الدالة من غير نطق ، أي أنها إشارة صامتة و معبرة عن مكنونها بغير اللفظ فالنصبة هي ما توحي به الأشياء لعقل الناظر و ذهن المتبصر ، ومن حق هذه الحال أن يكون ،المرجع فيها تدبيرا عقليا ذاتيا ، لا صفة موضوعية في الأشياء ذاتها ، "سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك ن و جنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا ن أجابتك اعتبارا"[1]، و الاعتبار بمعنى استنتاج العقل و قدرته على الاستيعاب و الإدراك ، و هكذا تصبح النصبة أو الحال وسيلة العقل إلى الاستعانة و الاستيضاح ، و من هنا نجد أن الجاحظ قد أخرج المصطلح البياني من الإطار الضيق الذي وضعه فيه الأصوليون ،و الذي جعلوه مرتبطا فقط بالنص القرآني و السنة بأنواعها إلى مستوى أرحب و أوسع ، مستوى يجعل فيه البيان كائنا في الإنسان الذي ينطق و يبين عن حاجاته و أحاسيسه و خلجاته النفسية ليس بلسانه فقط ، بل ستنطق أيضا بإشارات جوارحه ، و هيئاته أحواله المختلفة و هو كائن أيضا في كون الناطق حسب الجاحظ ، بأجرامه و نياته و حيوانه[2].

*** قضايا البيان :**

كانت لفظة البيان إلى عصر الجاحظ تستعمل بمفهومها العام الذي يتسع فيشمل كل ما له اتصال بفن القول على اختلاف صوره من شعر و نثر ، كما شمل البحث في المسائل البلاغة .

فلفظة البيان قبل الجاحظ كانت تطلق و يُراد بها أحيانا الفصاحة أو البلاغة أو الخطابة أو البديع وتحت مظلة لفظة البيان كانت تبحث قضايا البلاغة الجزئية فالجاحظ عد من أهم قضايا البيان تنافر الحروف و تنافر الألفاظ ، وقبح استعمال بعض الألفاظ في غير موضعها ، و وجوب التناسب بين اللفظ و المعنى في الشرف و السخف . و من جهة أخرى تناول الجاحظ مباحث البيان بالمعنى الاصطلاحي مكن تشبيه و استعارة وكناية أطلق عليها اسم البديع ، و ذلك من خلال ما أورده في

[1] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1 ص81.

[2] –ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ ، ص45.

كتابه "البيان و التبيين" من التشبيهات و الاستعارات و فطن إلى تقسيم اللفظ إلى حقيقة و مجاز ، وتحدث عن الكناية و لكنه أورد ذلك كله على سبيل الإدراك الذوقي [1]، كأن يقول: " ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة و الشعر الجيد و الرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العنابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه و حذوه و مثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كالنحوي منصور النمري ، و مسلم بن الوليد الأنصاري و أشباههما. و كأن العنابي يحتذي حذو بشار في البديع ، و لم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار و ابن هرمة "[2].

و للجاحظ طريقته في كل ما يعرض له من شؤون البلاغة و البيان و النقد ، لا يتكلم فيها مباشرة و إنما يتناول بيانها أو البرهنة عليها بان يتطرق إلى جوانب من البلاغة أو البيان أو النقد .

هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى في حديثه عن بعض عناصر البيان أو النقد في معرض الشرح والاستدلال على موضوع معين لا يصبها صبا كما فعل الذين جاؤوا بعده من رجال النقد والبلاغة في قوالب التعريفات و التحديات و إنما هو يسوقها في نماذج و نصوص من بليغ الحديث نثرا و شعرا ن مع شرح بعضها أحيانا أو التعليق عليها .

و إذا أردنا أن نجمل كل ما قيل بخصوص مفهوم البيان عند الجاحظ ، في عبارة مختصرة و جامعة لحمادي صمود الذي يقول بخصوص البيان " مفهوم البيان عنه ، يندرج من "العلامية" مطلقا إلى العلامة اللغوية بمستوياتها العادي و الأدبي "[3].

[1] –مصطفى هدارة، في البلاغة العربية علم البيان،ص 13.

[2] –الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص51.

[3] – حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص157.

المبحث الثاني :

ابن وهب و استئناف القول في بناء البيان :

من المتعارف عليه أن البيان العربي قد نشأ على يد الجاحظ رائده و مؤسسه دون منازع، إلى أن ألقى الدكتور طه حسين لأول مرة الشك حول الكتاب المنسوب إلى قدامة بن جعفر بعنوان "نقد النثر"، وذلك من خلال البحث الذي ألقاه الموسوم ب:"البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني"، الذي نشر في مقدمة كتابه "نقد النثر" سنة 1953م-1351هـ[1]، و الذي كان السبب في قيام الجدل الكبير حول المؤلَف و المؤلِف نفسه.

و معروف أن كتاب "نقد النثر" قد نشر و نسب إلى قدامة بن جعفر ، بتحقيق من الدكتور طه حسين و عبد الحميد العبادي ، و مع أن الدكتور طه حسين قد نبه إلى أن "نقد النثر" لا يمكن أن يكون لقدامة بن جعفر ، نرى بأن الأستاذ عبد الحميد العبادي يؤكد على أنه لم يكن لغيره غير أنه و قبل أن يُبدي رأيه في هذه المسألة يذكر أن المرحوم العلامة الشيخ مُحَمَّد محمود الشنقيطي عندما اطلع على كتاب "نقد النثر" ب :"الأسكوريال" لم يشك في أنه لقدامة ، وكتب يقول: **"**كتاب نقد النثر المسمى بكتاب البيان ، مما عني بتأليفه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي هو كتاب لا نظير له في غنه ،...و قد ألف كتابا آخر سماه بنقد الشعر**"**[2] .

و بعد طول بحث و استجلاء في الموضوع ، انتهى العبادي إلى أن الكتاب من تأليف قدامة واستدل على رأيه هذا بما يلي :

---

[1] – ينظر : ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب و خديجة الحديثي، مكتبة الرشد،ط1، 1433هـ/1012م،ص 11.

[2] – ينظر: قدامة بن جعفر، نقد النثر، الجامعة المصرية، دار الكتب القاهرة، مصر، 1351هـ/1933م، تح طه حسين، و عبد الحميد العبادي، ص42.

1/ أن الكتاب قد ألف في العصر نفسه الذي عاش فيه قدامة و دليله في ذلك ما وقع لابن التستري و قدامة و قد شهدها بنفسه.

2/ استنتج من خلال مقارنته بين الكتابين "نقد الشعر و نقد النثر" أن أسلوب الكتابة نفسه و كذا التقارب في المعاني[1]، و من هنا و على هذا الأساس أخرج المحققان الكتاب و نسباه إلى قدامة .

و بقي الحال كذلك غلى أن نشر الدكتور علي حسن عبد القادر سنة 1949م مقالة قيمة عن الكتابين "نقد النثر" أما " البرهان في وجوه البيان " مصححا بذلك ما شاع من الخطإ حول نسبة الكتاب ، ورد بذلك الاعتبار لمؤلف طغى على اسمه الزمان ، و ذلك بعد أن عثر على نسخة جديدة و كاملة من الكتاب بمكتبة إيرلندية و توصل بعدها من خلال بحثه هذا إلى :

1-أن الكتاب المطبوع باسم "نقد النثر هو كتاب : "البرهان في وجوه البيان"

2-أن مؤلفه هو : ابن وهب و ليس قدامة .

3-ان الكتاب المطبوع باسم نقد النثر أقل من نصف الكتاب الأصلي ، مستدلا هو الآخر بأدلة مؤكدا صحة مذهبه ، وفي كتاب "البرهان في وجوه البيان" يتحقق أحمد مطلوب و خديجة الحديثي قصة الكتاب كاملة ، وكل ما دار حوله من آراء و من بحوث ما يغني الباحث عن زيادة البحث و الاطلاع فيه ن أما النقاد المحدثون ففندوا أغلبهم ما ذهب إليه الدكتور عبد القادر من مثل ما جاء في البحث الذي قدمه عبد المنعم خفاجي بعنوان "نقد النثر"، و أكد فيه على أن الكتاب ليس لقدامة بن جعفر[2].

كما قدم لنا أدلة تثبت ذلك هي :

[1] – ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص27.11.

[2] – ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان ، ص12.

أولا :رأى أنه من العسير أن يؤلف أي كتاب ما بحثين في موضوع واحد فلا يحيل في أول الكتاب عن الجزء الثاني.

ثانيا: أن شخصية قدامة تظهر من خلال مؤلفاته أنه شخص مستقل في آرائه ، أما شخصية صاحب "نقد النثر" فهي شخصية المحتذي لغير.

ثالثا: أن الاتجاه السياسي و الديني لمؤلف "نقد النثر" هو اتجاه شعبي في حين أن اتجاه قدامة غير ذلك .

رابعا: أن ثقافة الكاتبين مختلفة ، فثقافة قدامة ثقافة عقلية مصطبغة بصبغة الأدب أما ثقافة مؤلف نقد النثر فهي ثقافة أدبية مصطبغة بصبغة الفلسفة و ثقافته الدينية واسعة جدا.

خامسا: هناك اختلاف بين أسلوب الكاتبين فأسلوب قدامة مرسل بعيد عن السجع ، أما أسلوب ابن وهب فأسلوب أدبي حريص كل الحرص على ابتغاء السجع .

كما يضيف خفاجي في بحثه هذا الكتاب " قد يكون لوالد قدامة " جعفر بن قدامة ت913هـ"[1] ، و مما أدى به إلى هذا الاعتقاد هو أنه كثير من مؤلفات جعفر قد نسبه لأبيه خطأ ومن خلال هذه الآراء استنتج أنه كتاب لمؤلفين مختلفين ، و أشار أن آراءه هذه لم يقع فيها على دليل ملموس وإنما هي آراء استنتجها بنفسه.

كما ذهب الدكتور بدوي طبانة في كتابه "قدامة بن جعفر و النقد الأدبي" إلى أن الكتاب من تأليف ابن وهب مفندا بذلك رأي الأستاذ العبادي [2].

[1] – ينظر: البرهان في وجوه البيان، ص17.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص19.18.

و لا ننسى أن نشير إلى رأي الدكتور شوقي ضيف في هذا الموضوع في كتابيه "النقد" و "البلاغة تطور و تاريخ" و قرر في ذلك بأن الكتاب ليس لقدامة و إنما هو لكاتب آخر أغلب الظن أنه من معاصريه.

1-1 في نسب الكتاب :

إن النسخة التي بين أيدينا من كتاب "البرهان في وجوه البيان" هي من تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي و الدكتور أحمد مطلوب سنة 2012-1433هـ و بعد أن حصل على النسخة الكاملة من الكتاب في مكتبة بإيرلندة و كتاب البرهان في أصله يقع في 346 صفحة ،' مع أن المطبوع منه باسم نقد النثر كان في 164 صفحة ، ليكون الفرق بذلك 182 صفحة[1] والنسخة جيدة الخط ، و كان تاريخ الانتهاء من كتابتها يوم الجمعة من شهر ربيع الأول سنة 677هـ ، وكان سبب نسبة هذا الكتاب لابن وهب هو أنهما قد وجدا اسم المحقق الحقيقي للكتاب في مطلع البيان الرابع من المخطوط قال فيها ابن وهب " فيما تقدم من كتابنا هذا نعمة الله –عز وجل- على عباده فيما ألهمهم إياه من الكتابة ، و دلنا على حكمته سبحانه في ذلك ، و أنه أراد إتمام منافعهم و إيجاب الحجة عليهم ، فإنه لولا الكتاب الذي قيد علينا أخبار من مضى من الرسل ونقل إلينا ما أتوا به من الكتب ،، إذ كنا لم نشاهدهم و لم نسمع حججهم ، و لم نعاين آياتهم ولانقرضت العلوم و الروايات بانقراض أهلها و موت من يحملها ،و لم يبق في أيدي الناس من ذلك و من اخبار الماضين و آثار المتقدمين إلا اليسير مما تلقاه الخلف عن السلف"[2]، ومن خلال هذا القول فقد اعتبر المحققان ان هذه إشارة صريحة إلى نسبة كتاب "البرهان في علوم البيان" إلى غير قدامة ، ذلك أن ذكر الكاتب أربعة كتب له (الحجة، الايضاح، التعبد، أسرار القرآن)[3] وهذه الكتب ليست لقدامة و ضيف إلى ذلك أن هذه الكتب لا يمكن لها أن تصدر إلا من رجل له تضلع بالعلوم الإسلامية ، و معروف أن قدامة لا يتمتع بمثل هذا.

---

[1]- ينظر: البرهان في وجوه البيان ،ص19.

[2]- المرجع نفسه ، ص20.

[3]- المرجع نفسه، ص21.

1 -2-مؤلفه

هو أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهي الكاتب ، من عائلة شهيرة في التاريخ، و جده :أبو أيوب سليمان بن وهب بن عمرو بن حصين بن قيس قبال و كان قبال كاتبا ليزيد بن أبي سفيان لما ولي الشام ، ثم لمعاوية من بعده ، و وصله معاوية بولده يزيد ، ثم استكتب يزيد ولده قيسا ، ثو كتب قيس لمروان بن الحكم ثو لولده عبد الملك ، ثم لهشام بن عبد الملك ن و كذلك توالت علاقتهم بالكتابة و الحكام[1].

و قيل أن لسليمان بن وهب ولد اسمه أحمد بن سليمان بن وهب أبو الفضل ، وهو كاتب له شعر ،و قد تقلّد أعمالا في حياته للأموال و توفي سنة 285هـ ، و له ابن آخر هو عبد الله بن سليمان و قد ذكره الصولي في "أدب الكتاب"، عدة مرات، و توفي سنة 288هـ.

و لم نعثر على اسم ولده ابراهيم و حفيده أبي الحسن اسحاق مؤلف كتاب "البرهان" ولسليمان أخ اشتهر في الدولة العباسية ، هو الحسن بن وهب المتوفي سنة 251هـ.

و نظرا للمكانة المرموقة التي كانت لهذه العائلة الكبيرة في العصر العباسي ، فقد تغنى بها الشعراء بمدحهم ، و أشادوا بذكرهم ، و بكوهم بكاء مرا يوم ودعوهم ، و كان لأبي تمام والبحتري علاقة وثيقة بهذه العائلة و لهم فيها مدائح و مراثي[2]، كما كان لابن وهب علاقة وطيدة مع شيخه الحسن بن وهب فكان ينقل عنه كثيرا ، فهو كان ملما بالكتابة و أمورها مطلعا عليها عارفا بأسرارها .

أما عن العصر الذي عاش فيه ابن وهب فهو عصر عرف بالنهضة في الإسلام ، وهو زمن نبغ فيه معظم العلماء فهو عصر الصدام بين النحاة و المناطقة مثل النحوي الكبير "أبي سعيد السبراقي (ت368هـ)" و المنطقي الشهير متى بن يونس (ت328هـ)"، و غيرهما ، وهو عصر

3- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان ، ص 21.

[2]- المرجع نفسه ، ص39.

ثبتت فيه الثقافة اليونانية و علومها أقدامها ، و ذلك باستيعاب العقول العربية ما تناقلته الأجيال من ذلك التراث الأجنبي و خاصة منه الأرسطي من خلال الترجمات التي أسهمت في نشر الثقافة الأصولية التي تمتع بها ابن وهب ، و أحال عليها كثيرا في مؤلفه "البرهان" و"كذلك دخول الثقافة الإسلامية في حوار مباشر مع بعض الثقافات الأجنبية"[1]، هذا ما ساهم في بناء ثقافة ابن وهب المكونة من علوم الأدب و الرواية وعلم التأويل و الفقه و أصول التشريع و المنطق و الفلسفة اليونانية ، لكن هذه الثقافة و زخمه المعرفي لم يجعله يتمتع بشهرة كالتي تمتع بها معاصره قدامة بن جعفر و عبد الله بن المعتز ، حيث سكتت المراجع عن التعريف به و بكتابه قديما و حديثا ، و العامل الأساسي وراء هذه الثقافة هو النضج الفكري لفئة المتكلمين و البلاغيين من وراء تحليل مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم الذي عرفه ذلك العصر.

1-2- حتواه:

لقد كان لكتاب "البيان والتبيين" للجاحظ أثر كبير وراء تأليف ابن وهب لكتابه "البرهان في وجوه البيان"، لقول شوقي ضيف: "و في القطعة آنفة الذكر التي نقلناها عن مقدمته للكتاب ما يصور في وضوح أنه ألفه معارضة لكتاب الجاحظ المسمى ب: "البيان والتبيين" وقد وصفه بأن مسائل البيان فيه تختلط بالنماذج الأدبية اختلاطا يجعلها غير واضحة بل قال إن الكتاب يخلو من وصف البيان و من تميز أقسامه ، وكأنه يريد أن يقول إن البحث في البيان ليس من شأن المتكلمين من أمثال الجاحظ "[2]، و قد استهل كتابه بالقول " أما بعد فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه "البيان و التبيين"، و أنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتحلة و خطبا منتخبة ، و لم يأت فيه بوظائف البيان ، و لا أتى على أقسامه في هذا البيان فكان عندك ما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه"[3]. ثم يذكر فضل الله على الانسان لأنه ميزه عن الحيوان ، وذلك يكمن في العقل و به أيضا يفرق بين الخير و الشر "و يستهل الكتاب ببيان أن الله فضل

[1]- ينظر: شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص89.

[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 96.

[3]- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، صص 52.51.

الإنسان على سائر المخلوقات بعقله الذي يفرق به بين الخير و الشر و النافع و الضار ، و يقول إن العقل حجة الله على خلقه و الدليل لهم إلى معرفته"[1]، وقدم لنا أدلة على ذلك ، و بعد قدم لنا وجوه البيان الأربعة(بيان الاعتبار ، الاعتقاد ،الإيجاز ، الكتاب)، وهي مسائل لأصناف الدلالة لدى الجاحظ " إذا كان الجاحظ قد أحصى أصناف الدلالات ، وحصرها في خمس دلالات هي : اللفظ ن الإشارة ،الخط والعقد و النصبة ، فإن صاحب البرهان يجعل وجوه البيان اربعة (بيان الاعتبار ، بيان الاعتقاد ن بيان العبارة ، بيان الكتاب "[2]، و بهذا يكون ابن وهب قد قسم كتابه إلى أربعة أقسام وجعل لكل قسم وجها من وجوه البيان .

و بهذا الكتاب حاول ابن وهب أن يوظف حصيلته الثقافية في قراءة البيان العربي بطريقة لا يفهمها و لا يشرع لها ، و لا يطبقها ، و إنما يستأنف بها في الفهم و الإفهام.

مفهوم البيان عند ابن وهب:

إن مفهوم البيان عند ابن وهب الذي صاغه في كتابه "البرهان في وجوه البيان" قد سلك منهجا علميا منطقيا ، فهو بذلك بعيد صياغة البيان العربي للانتقال به في بيداغوجية التأليف عند العرب ، وذلك من الطرح الموسوعي إلى الطرح العلمي الدقيق فمفهوم البيان عنده "البيان على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها و إن لم تبن بلغاتها ، و منه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر و اللب ، و منه البيان باللسان ، و (منه البيان بالكتاب)، وهو الذي يبلغ من يعد و غاب"[3]، وهو بهذا يتحدث عن الأشياء التي تتبين بذواتها ، و التبين بالتأمل و التبيين باللفظ ، و التبيين بالكتابة ، و هذه كلها معان لغوية .

و كما قلنا سابقا أن موضوع "البرهان في وجوه البيان" هو الكشف عن أقسام البيان وإظهار أصوله و فروعه ، ليؤول كل ذلك عند ابن وهب التعرف على معانيها و استجلائها . فقد قسم من

[1]–شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 96.

[2]– بدوي طبانةن البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، كلية دار العلوم ، ط2، ص 66.

[3]– ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 60.

أجل ذلك كتابه إلى أربعة أبواب ستكون عناوينها هي نفسها أقسام البيان الرئيسة و أصوله و هي كالآتي:

1/ باب البيان الأول و هو الاعتبار

2/باب البيان الثاني و هو الاعتقاد

3/باب البيان الثالث و هو العبارة

4/باب البيان الرابع و هو الكتاب [1]

و نجد في ذلك ابن وهب قد أورد لنا المعاني المركزية و الأصلية لوجوه البيان الموزعة على الأبواب الأربعة و كيفية ترتيبها من أولها إلى آخرها.

2-2 وجوه البيان عند ابن وهب :

– البيان الاول:

الاعتبار :

يشمل بيان الاعتبار إضافة الى قول : أنه بيان الأشياء بذواتها عن المعاني الناتجة عن النظر في حالات الانسان الدالة أو اشاراته غير القصدية (وهو بيان الاشياء بذواتها : فالأشياء تبين للناظر المتوسم و العاقل المتبين بذواتها ، وبعجيب تراكيب الله فيها وأثار صنعته في ظاهرها [2]) وكذلك حالات الانفعالية للإنسان (وقد يصمت الانسان ، ويستعمل الكتمان لمخافة أو رؤية أو إسرار عداوة أو بغضة ، فيظهر في لحظاته وحركاته ما يبين عن ضميره ، ويُبدي مكنونه ، مثل ما يظهر من الدمع عند فقد الأحبة ، ومن تغير النظر عند معاينة أصل العداوة ، ولذلك قال الشاعر : (البسيط):

[1]– المرجع نفسه ، ص 313.111.101.73.

[2] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص66.

إذا لقيناهم نمت عيونهم و العين تظهر ما في القلب أو تصف [1]

وكذلك نجد أن البيان بالاعتبار يشمل أيضا على البيان الظاهر والباطن ، أما الظاهر ما أدرك بالحس الذي لا يحتاج الى اعمال الفكر ،كبرودة الثلج عند ملامسته أو ما أدرك بنظر العقل التي تتفق فيها العقول ، مثل تبيننا أن الزوج خلاق الفرد ، وأن الكل أكثر من الجزء أما الباطن فهو ما غاب عن الحس ، أو ما لا ينسى تبيانه به و سوف تختلف العقول في إثباته إذ ستستعين لأجل ذلك بضروب الاستدلال المحصورة عنده :

1. القياس : الذي هو التمثيل و التشبيه الواقعان بين الأشياء في بعض معانيها لا في سائرها واللذان يمكن استخلاصهما باستعمال إما الحد أو الوصف أو الاسم.
2. الخبر: و يبدو أن معظمه وليد قياس سابق عنه الذي يفيد العلم و يزيل الشك[2].

حصر ابن وهب طرق دلالة الشيء على غيره في أربع:

1. المشاكلة و المشابهة .
2. التضادّ الذي يكون بين الضدين اللذين لا واسطة بينهما ، مثل الحياة و الموت ، فإذا كانت بينهما واسطة كحال السواد والبياض اللذين بينهما حمرة و صفرة و خضرة ن فلبس الأمر كذلك ، لأننا سنعرف بالشواهد ضده الذي هو البياض، لكننا إذا نفينا السواد عن الشيء لم يجب له البياض ضرورة .
3. العرض: و مثاله معرفة الجسم بالطول و العرض و السمك.
4. بالفعل: و مثاله دلالة الولد على الوالد[3].

-البيان الثاني

[1] – ابن وهب، البرهان في جوه البيان، ص66.

[2] – ابن وهب، البرهان في وجه البيان ، ص 77.76.

[3] – المرجع نفسه ، ص ن.

الاعتقاد:

من بين النعوت التي خص بها ابن وهب بيان الاعتقاد قوله:" إن الأشياء إذا تبينت بذواتها للعقول وترجمت عن معانيها للقلوب ، صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة و علما مركوزين في نفسه[1]، و لكن الاعتقاد المبني على العلم و المعرفة عند ابن وهب أنواع فهو عنده إنما :

* " حق لا شبهة فيه... فهو علم اليقين و اليقين ما ظهر عن مقدمات قطعية كظهور الحرارة للمتطيب عند توقد اللم ، و سرعة النبض و احمرار اللون أو عن مقدمات ظاهرة في العقل كظهور تساوي الأشياء إذا كانت متساوية لشيء واحد ، أو عن مقدمات خلفية مسلمة بين جميع الناس كظهور قبح الظلم"[2].

* علم مشتبه و هو الذي يحتاج إلى التثبت فيه و إقامة الحجة على صحته و مثاله النتائج التي تظهر المقدمات غير قطعية و لا ظاهرة للعقل في بنفسها ، ولا مسلمة على جميع الناس و ذلك كرأي أي قوم في مذاهبهم[3]

* باطل لا شك فيهك وهو ما ظهر عن مقدمات كاذبة مخالفة للطبيعة مضادة للعقل أو ما جاء في أخبار الكاذبين الذين يخالفون العرف و العادة[4]

البيان الثالث:

العبارة:

أهم النعوت الخاصة ببيان العبارة تلك التي تشبه النعوت التي خص بها صاحب البرهان بيان الاعتبار كونه-أي بين العبارة- يشتمل بدوره على بيان ظاهر و آخر باطن و الظاهر يتم الوصول إليه

[1] – المرجع نفسه ، ص101.

[2] ابن وهب، البرهان في وجه البيان ، ص 101.

[3] – ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

[4] – ينظر: المرجع نفسه ، ص 103.

بنفس الوسائل التي يتم الوصول بها إلى البيان الباطن من بيان الاعتبار و هما القياس و الخبر ،كام نجد أن وصف ابن وهب للبيان الظاهر و الباطن في قوله: "الظاهر منه غير محتاج إلى تغيير، و إن الباطن هو المحتاج إلى التغيير،، وهو الذي يتوصل إليه بالقياس و النظر والاستدلال و الخبر "[1]،و من أمثلة ما يتوصل إليه بالقياس و النظر و الاستدلال لقوله عز وجل :"فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر" الآية (02)[2]الكهف، فظاهر قوله عز وجل التفويض والتخيير ، إلا أن باطنه التهديد و الوعيد ،أما ما يتوصل إليه بالخبر مثل الصلاة في اللغة –الدعاء– و الصيام الذي هو الإمساك .

البيان الرابع

الكتاب:

" الذي هو نطق باللسان ، لأن بيان القلب أو الاعتقاد يحصل في نفس المعتقد ، و لا يتجاوزه إلى غيره"[3]، وهذا البيان من أكثر الوجوه فعالية فهو يلعب دورا كبيرا في تقدم العلوم والمعارف التي ينقلها الكتاب من جيل إلى جيل و يحافظ عليها على مدى الدهر "لولا الكتاب ...انقرضت العلوم و الروايات بانقراض أهلها و موت من تحملها ، ولم يبق في أيدي الناس من ذلك و من أخبار الماضين و آثار المتقدمين إلا اليسير مما يلقاه الخلف عن السلف ، و كم عسى أن يكون ذلك ، وما يرى أن يبلغ من العلوم الحالية... فلما أعطاهم هذه الموهبة قيدوا بها ذلك أجمع[4]، فالحفاظ على آثار المتقدمين و إبقاء أفكارهم و نتائجهم العلمية الآتية بعدهم إذ أن تدبر هؤلاء في علوم أولئك و معارفهم و اطلاعهم عليها ، سيختزل كثيرا من جهودهم الفكرية.

بعد محاولة رسم صورة مبسطة عن البيان عند ابن وهب ، بإيراد أهم الوجوه العامة للمصطلح عنه ، ثم استخراج بعض النعوت العالقة به ، فإن أولى الملاحظات التي يمكن استنتاجها هي العلاقات

[1] – المرجع نفسه، ص111.

[2] –سورة الكهف الآية (02)

[3] –بدوي طبانة ،البيان العربي دراسة تاريخية في أصول البلاغة العربية ، ص67.

[4] –ابن وهب ،البرهان في وجوه البيان ن ص313.

الحاصلة بين وجوه البيان الأربعة و ترتيبها. فقد ترجع بعض تلك العلاقات إلى بعض ما قيل بخصوص معاني البيان اللغوية و سنذكرها بواحد من التعليقات التي خصت بها ، و التي قلنا فيها إن معظم تلك المعاني وليدة المعاني السابقة لها بحيث لا يمكن مثلا أن يحصل الكلام الذي يعد واحداً من المعاني اللغوية للبيان إلا بظهور الشيء المعبر عنه بالكلام و وضوحه، فظهور ذلك الشيء و وضوحه هو معنى لغوي آخر للبيان، و هنا يعني أن وجوه البيان عند ابن وهب تقوم هي الآخر على هذه الخاصية، خاصية تولد وجوه البيان من بعضها البعض فيقول بخصوص ذلك: " فإذا حصل هذا البيان للمتفكر صار عالما بمعاني الأشياء و كان ما يعتقد من ذلك بياناً ثانيا غير ذلك البيان و خص باسم الاعتقاد ، و لما كان ما يعتقده الإنسان من هذا البيان، و يحصل في نفسه من غير متعد له إلى غيره ، وكان الله عز و جل قد أراد أن يتمم منه فصيلة الإنسان خلق له اللسان ، و أنطقه بالبيان، فخبّر عما في نفسه من الحكمة التي أفادها ، و المعرفة التي اكتسبها ، فصار بذلك بياناً أوضح مما تقدمه"[1].

و من جهة أخرى نجد ابن وهب قد صنف البيان إلى كيفية حصوله من جهة و ثباته أو تغيره من جهة أخرى فهو بيان بالطبع و الفطرة و يوافقه بيان الاعتبار و الاعتقاد و بيان بالاكتساب و التعلم و الوضع و يوافقه بيان العبارة و الكتاب، و يوضح ذلك قائلا: " إلا أن البيانين الأولين بالطبع فهما لا يتغيران و هذا البيان و البيان الآتي بعده بالوضع فهما يتغيران بتغير اللغات، و يتباينان بتباين الاصطلاحات"[2]

كما يمكن القول أيضا بخصوص النوعين دائما إنهما ينتميان إذا ما نظر إليهما من زاويتي التلقي و التبليغ ، أو الفهم و الإفهام إلى فضائين مختلفين، " فبيان الاعتبار و بيان الاعتقاد قد ينتميان إلى

[1]– ابن وهب، البرهان في وجه البيان ، ص 62.

[2] المرجع نفسه، ص 62.

الجانب الأول إذ هما تبيّن و فهم و تلقي، أما بيان العبارة و الكتابة فينتميان إلى الجانب الثاني إذ وظيفتهما التبيين و الإفهام و التبليغ "[1].

و ما يمكن ملاحظته أيضا هو إمكان تحدد بان الاعتبار ثم بيان الاعتقاد عند الوصول إلى عملية تلقي بيان العبارة و من ثمة بيان الكتاب ، باعتبار أن الكتاب ليس في الأخير إلا تصورا للمادة الصوتية التي تتكون منها ألفاظ العبارة و تراكيبها ، فإلى جانب احتواء كل من الاعتبار و العبارة على بيان ظاهر و آخر باطن ، فإن كيفيات تلقي معانيها ستتم في كليهما بنفس الوسائل و الأدوات ، و ذلك بتكرار استعمال الحس و النظرة البديهية و العفوية التي تتفق فيها العقول للحصول على معاني البيان الباطن و استنباطه منها، ليتشكل بعد بالضرورة الاعتقاد الناتج عن النظر فيها ، أي البيان الظاهر و الباطن من العبارة أو الكتاب، و الذي سيكون إما حقا لا شبهة فيه أو علما مشتبها به أو باطلا لا شك فيه، و إذا أردنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك في وصف عملية التجديد فإنما نقول إنه لن يتوقف عند الحد المرسوم سابقا بل سيستمر وذلك بتحول بياني الاعتقاد و الاعتبار المتجددين بدورهما إلى بياني العبارة و الكتاب وهكذا إلى ما لا نهاية.

ومنه يمكننا طرح تساؤل عن المفهوم العام الذي ينطوي تحته مفهوم البيان أو تعبير آخر ماذا يريد ابن وهب اظهاره بتقسيمه البيان إلى أربعة وجوه؟. ثم ترتيبها بطريقة منصوصة تجعل بعضها وليدة لبعضها الآخر و نتيجة بدءً من بيان الاعتبار و وصولاً إلى بيان الكتاب ثم التوسع فيها بتخصيص باب مستقل لكل واحد منهما .

يقول مُحَّد عابد الجابري" إذا نحن عدنا الآن، و ألقينا عليها نظرة عامة من منظور تركيبي فإننا سنجد أنفسنا أمام مشوع لنظرية بيانية في المعرفة"[2]

[1] محمد عابد الجابري بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 13-14.

[2] محمد عابد الجابري، بنية العقل، ص 37.

و في موضع آخر يقول " ... يتعلق الأمر إذا بنظرية في المعرفة البيانية على جميع المستويات"[1] و هو بذلك – أي الجابري- قد جعل من وجوه البيان التي قال بها ابن وهب من هذه المستويات غنها نفسها تجليات العقل " العقل و البيان هي نفسها تجليات العقل و مظاهر نشاطه"[2]

هكذا نخلص إذن إلى القول أن وجوه البيان عند ابن وهب ماهي في آخر الأمر إلا محاولة لوضع نظرية في المعرفة و استجلاء لطرق اكتسابها، و سنحاول ربط البرهان في وجوه البيان بالبيان و التبيين.

أشرنا في السابق إلى أن الكتاب الأول مرتبط ارتباطا وثيقا بالكتاب الثاني و متأثرا به أشد تأثير فهل يعني ذلك أن ما قام به ابن وهب في موضوع البيان ما هو إلا إعادة لما جاء به الجاحظ و تكرار له؟. رغم تأكيدهم صراحة أنه ألف كتابهم على سبيل معارضة كيفية تناول الجاحظ للبيان إن القيام بعملية مقارنة بسيطة بين المكونات الأساسية للبيان عند الجاحظ و ابن وهب تكشف أن معظم ما تحدث به الثاني هو نفسه ما جاء به الاول الذي يقول شارحا " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ و غير لفظ خمسة أشياء لا تنقص و لا تزيد أولها اللفظ، الإشارة، العقد، الخط، الحال، و تسمى نصبة و النصبة هي الحال الدالة[3] و أصناف الدلالات عند الجاحظ ليست سوى مكونات البيان المركزية و أقسامه الأساسية و يبدوا من الواضح أن معظم وجوه البيان عند ابن وهب هي نفسها أقسام البيان عند الجاحظ فبيان الاعتبار يقابله بيان النصبة او الحال الدالة عند الجاحظ و بيان العبارة يقابله البيان بالفظ، أما بيان الكتاب فيقابله البيان بالخط ليبقى من ذلك كله في هذه المرحلة الأولى من البحث بيان الاعتقاد بدون مقابل عند الجاحظ، و بيان الإشارة و العقد بدون مقابل أيضا عند ابن وهب و في موضع آخر نجد عملية نهل لأفكاره حول البيان من – البيان و التبيين- عند ذلك الحد حدُّ نقل معظم المفاهيم المركزية التي أرسى بها و بفضلها معالم نظريته في المعرفة

[1] المرجع نفسه ص 38.

[2] – محمد عابد الجابري، بنية العقل ، 34.

[3] الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص 76.

بل ستستمر في عملية النهل التي ستظهر بشكل جلي عما يصل الكلام عن الخطابة فقد " ذكر نعوت الخطابة و خصائص أساليبها متأثرا أشد التأثير بما كتبه الجاحظ في بيانه حتى يمكن أن يورد الكلام من ص 95 إلى 113 إلى مواضعه من كلام الجاحظ عبارة عبارة "[1]

[1] شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 101.

الفصل الثاني

المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب قراءة في أطروحات المعاصرين

المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب
قراءة في أطروحة المعاصرين

لقد سبق لنا و أن عرفنا أن عديد النقاد و الأدباء أخذوا يحاولون فهم أسرار البيان و وضع أصوله، فاشتهر في النهوض بهذا العلم كثيرون في مقدمتهم أئمة الشعر و الخطابة و فحول الكتاب و الرواة و علماء الأدب من بصريين و كوفيين و بغداديين ، و كذا رجال النقد الذي جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى ، " فنشأت من ذلك آراء كثيرة في البيان و تحديده نجدها في مصادر كتب الأدب و النقد و البلاغة "[1]، تلك المؤلفات التي حفظت لنا الكثير من الدراسات الموجزة حول البيان و بحوثه المختلفة ، على أن أهم الكتب التي تناولت مسائل البيان بالبحث و التفصيل كتب الجاحظ و نقصد هاهنا كتاب " الحيوان " و "الرسائل" و "البيان و التبيين" ، إذ عد هذا الأخير أهم ما ألف في هذا العصر من كتب تتصل ببلاغة العرب نثرا و شعرا ، " و بذلك عدت دراسته ذات أثر كبير في نشأة البيان و هي التي أوحت الى الكثيرين بأن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان "[2]، و الذي على نهجه سار كل من تبعه و ظلت كتاباته و ملاحظاته في البلاغة البيان " معينا لا ينفذ لمد الأجيال التالية بكثير من قواعدها ،كل يستمد منها حسب قدرته و مهاراته الذهنية"[3]، و دائرة واسعة المعارف ، ومدرسة رحبة بمادتها و أسلوبها ، و قيمة الجاحظ في الحقيقة لا تتجلى فقط في اجتراحه علم البيان و البلاغة ، و إنما تتجلى كذلك في نزعته الإنسانية التي ينطلق منها لمناقشة القضايا و المشكلات الفكرية التي كانت تخيم على المجتمع الإسلامي خاصة في القرن الثالث الهجري ، و ذلك من خلال ما كتبه الجاحظ من مؤلفات حول الآداب التاريخ الفلسفة الدين و الفكر و بذلك اجتمع في تراثه ما كان متفرقا عند غيره، فشغل حيزا واسعا من أبحاث الدارسين و استأثر قديما و حديثا بنصيب وافر من جهود الدارسين المحدثين المهتمين بالتراث العربي فمنذ القرن

[1]– محمد عبد المنعم خفاجي و آخرون، الأسلوبية و البيان العربي ، ص 27.

[2] – المرجع نفسه ص، نفسها.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 57.

الماضي بدأت حركة التأليف تسارع نسقها حتى أصبح من العسير الإلمام بكل ما نشير حول الجاحظ ، و قد مست هذه المؤلفات معظم جوانب الفكر الجاحظي .

نروم في هذا المقام الوقوف على أبرز مواقف النقاد و الباحثين في الحقل البلاغي فيما يخص مؤلفات الجاحظ و خاصة " البيان و التبيين " بوصفه كما قال حمادي حمود " أهم مؤلفات الجاحظ الأدبية ، و أكثرها تداولا بين النقاد و العلماء و أبعدها صيتا "[1]، وإمام كتب الجاحظ و أهمها دون منازع ، فهو من أشهر مؤلفاته و أنطقها حجة لثقافة صاحبها الواسعة ، فإليه يدين بشهرته العلمية ، فجاء الكتاب جامعا لأشتات المعارف خاصة البحث اللغوي البلاغي ، و مصدرا ضروريا لإبراز دور الجاحظ في المنجز البياني العربي.

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العربي، ص 140.

المبحث الأول : مكانة الجاحظ من خلال قراءات المعاصرين للتراث البلاغي :

1-1 عند طه حسين :

من أشهر المعاصرين الذين نوّهوا بمكانة الجاحظ في قراءتهم للتراث البلاغي نجد طه حسين الذي وضع تمهيدا لكتاب نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ، تناول فيه البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني.

فافتتحه بدور الجاحظ في الرد على الشعوبية و تفضيل بلاغة العرب على غيرهم من اليونان و الفرس ، لأنها بلاغة طبع و ارتجال ، ثم يقرر مكانته في تاريخ البيان العربي بقوله : " و مع ذلك فإن العرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي ، و ليس ذلك لأنه وصل بجهده إلى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة في كتابه البيان و التبين لأنه جمع في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحا حسنا كيف كان العرب يتصورن البيان في القرن الثاني و النصف الأول من القرن الثالث ، و تعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي، إن لم تسمح لنا بتأريخ هذه النشأة "[1]، فهذا اعتراف بمركزية جهد الجاحظ في تأسيس البيان العربي ، ثم ينتقل طه حسين إلى استخلاص ثلاث نتائج يصل إليها قارئ كتاب البيان و التبين هي[2] :

أولا : اعتناء العرب منذ العصر الجاهلي بصناعة نقد الكلام .

ثانيا : تطور هذا الاعتناء منذ القرن الثاني بسبب الصراعات السياسية و الحركات الفكرية ، بل ظهرت آنذاك مدارس نحوية و فقهية و حديثية .

ثالثا : ظهور طبقة الكتاب، و كان أغلبهم من العجم فأدخلوا على البيان العربي أساليب من عندهم ، و قد أثنى عليهم الجاحظ كثيرا ، لذلك يرى طه حسين بأن البيان العربي لم تكن تركيبته خالصة ، بل هو مكون من ثلاثة عناصر :الأول العربي القائم على الوضوح ، و الثاني الفارسي القائم على

[1]– طه حسين، التمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى القاهر، ضمن مقدمة نقد النثر لقدامة، دار الكتب العلمية بيروت ص 3.
[2] – المرجع نفسه، ص 4-5-6.

البراعة ، و الثالث هو اليوناني القائم على دقة المعنى ، ثم يحاول تبويب البيان في تلك المرحلة من خلال أربعة فصول قِصَار :

الأول : الكلام على صحة مخارج الحروف .

الثاني : الكلام على سلامة اللغة و الصلة بين الألفاظ بعضها ببعض ، و العيوب الناشئة من تنافر الحروف تنافرا يمجّه السمع .

الثالث : الكلام على الجملة و العلاقة بين المعنى و اللفظ ، ثم على الوضوح و الإيجاز و الأطناب و الملاءمة بين الخطبة و السامعين لها ، و الملاءمة بين الخطبة و موضوعها .

الكلام على هيئة الخطيب و إشاراته [1].

و الخلاصة أن طه حسين يجعل من بيان الجاحظ نقطة الإقلاع في تأسيس البيان العربي عموما .

1-2 عند شوقي ضيف :

يرى شوقي ضيف أن مكانة الجاحظ في تاريخ البلاغة تفوق مكانة أي بلاغي آخر ، و أن دوره كان مركزيا في تأسيس مقولاتها، و أن جهده كان منطلقا لجميع من تلاه ، حيث يقول : "و قد ظلت كتابات الجاحظ و ملاحظاته في البيان و البلاغة معينا لا ينفذ لمدى الأجيال التالية بكثير من قواعدها ، كل يستمد منها حسب قدرته و مهارته الذهنية ... و لعلنا لا نبالغ إذ قلنا بعد ذلك كله أن الجاحظ يُعَدّ غير منازع مؤسس البلاغة العربية ، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه "البيان و التبيين" و نثر فيه من ملاحظاته و ملاحظات معاصريه، وتعمق وراء عصره فحكى آراء العرب السابقين ، و التمس بعض آراء الأجانب أو قل سجلها، و قد مضى ينثر في كتابه "الحيوان" تحليلات لبعض الصور البيانية في الذكر الحكيم "[2].

[1]– طه حسين، التمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، ص 7–8

[2]– شوقي ضيف، البلاغة و تطور تاريخ، دار المعارف، ط9، ص 57–58.

فهذا نصّ يلخص فيه مكانة الجاحظ من خلال مؤلفاته و القضايا التي طرحها فيه ، و من خلال منهجه في تسجيل الملاحظات عن العرب و العجم المعاصرين و السابقين ، و من خلال إجراءاته التحليلية.

كما أشار أيضا إلى كتابه المفقود في "نظم القرآن " فقد اشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغية ، و نبه أيضا عل نقطة مهمة تتعلق بالتأسيس للمصطلحات و التعريفات والقواعد ، فلم يكن الجاحظ يعنى بوضع ملاحظاته في شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة و لكنه صورها في أمثلة متعددة بحيث تمثلها من خلفوه تمثلا واضحا ، و هكذا نرى شوقي ضيف يركز على الخلفية الاعتزالية للجاحظ و دورها في منجزه البياني ، لأنه كان من كبار المعتزلة[1].

هذا و قد سجل شوقي ضيف أهم القضايا الكبرى التي أثارها الجاحظ في مؤلفاته في النقاط التالية:

أولا: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال "و هي قاعدة أساسية في مفهوم البلاغة ، و هنا يقف شوقي ضيف على صحيفة بشر بن المعتمر و إفادة الجاحظ منها، فذكر أن الجاحظ توسع في تطبيق تعليماتها من مخاطبة المتكلمين إلى الأعراب و البدو و العامة ،كما تكلم عن مشاكلة الألفاظ للمعاني[2].

ثانيا : " الإيجاز و الإطناب " فتكلم الجاحظ عن موضعهما ، و عن الترداد و التكرار في القصص القرآني و مواعظ الوعاظ ، و إذا كان قد ارتضى الإطناب في الخطب فقد رفضه في الرسائل كما رفض تعريف الإيجاز بالقصر و قلة الحروف و إنما هو المساواة الدقيق ة للمعاني دون زيادة ، فقد يطول الكلام و يسمى موجزا ، و عليه فقد قسم الإيجاز الى مقبول بليغ ، و فاسد مستغلق على

[1].- المرجع نفسه ، ص 46-55-58.

[2]- المرجع نفسه، ص 46-47

الفهم لغموضه ، و اتسع في هذا الباب أكثر من المتأخرين فربطه بالأساليب التي يتميز بها كل شاعر أو خطيب [1].

ثالثا : " صفات الألفاظ و المعاني " فذم التكلف و فرق بينه و بين التنقيح ، و دعا إلى التوسط في الأساليب ، و تحدث عن صفات الجزالة و الفخامة ، والرقة و العذوبة ، و الخفة و السهولة و عن صفات الحروف و مخارجها و تنافرها ، و أنكر الدلالة الترادفية فجعل لكل لفظ معناه في سياقه الخاص به [2].

رابعا : " علم البيان " حيث تحدث الجاحظ عن الصور البيانية ، و كان ذلك في كتاب "الحيوان" أكثر من كتاب "البيان و التبيين" ، بسبب أنه تعرض لتأويل بعض الآيات المتشابهات ، ردا على مطاعن الملاحدة وشبهاتهم ، فناقش الاستعارات و التمثيلات و التشبيهات ، وكان أول من تحدث عن الحقيقة و المجاز و انقسام الكلام إلى هذين القسمين ، و هذا يدل على دور الاعتزال في منجزه البياني [3].

خامسا : " علم البديع " فتحدث عن مفهومه الواسع الذي شاع عند شعراء عصره كبشار والعتابي ، و ليس بمفهومه عند متأخري البلاغيين ،و تكلم عن اختصاص العرب بالبديع دون غيرهم ، فناقش شوقي ضيف هذه الدعوى و اعترض عليها ، كما أشار إلى أن الجاحظ ربما يكون له الأثر البالغ في تأليف "ابن المعتز " لكتاب "البديع " ، لأنه ذكر فيه المحسن البديعي المعروف بالمذهب الكلامي و ذكر فيه الجاحظ ، و هو أسلوب يتعلق بعلم الكلام و المجادلات التي اشتهر بها، و من فنون البديع التي وقف عندها الجاحظ : السجع و الأسلوب الحكيم ، و الاحتراس [4].

[1]- شوقي ضيف،البلاغة تطور و تاريخ، ص 48-49

[2]- المرجع نفسه،49-50-51

[3]- المرجع، نفسه ص 55-56.

[4]- المرجع نفسه، ص 53-54-56-57.

سادسا : " السرقات الشعرية " فكان الجاحظ من أوائل من مهد للبحث فيها و معالجة أصنافها حتى صارت من أهم القضايا في النقد و البلاغة على السواء[1].

سابعا : " الصياغة و النظم " ، و هنا تحدث العن نظريته في المعاني المطروحة في الطرق، و عن تعريفه للشعر بأنه نسج و تصوير ، و عن انتقاله من فكرة النظم إلى تعليل إعجاز القرآن بها [2]. ثم تحدث عن تفضيله للفظ عن المعنى ، و الحقيقة أن هذه القضية قد شغلت العديد من الباحثين فتضاربت الآراء ،إذ عدت جل كتب البلاغة و النقد الحديثة أن الجاحظ من أنصار اللفظ فشوقي ضيف مثلا يدقق الرأي في تفضيل الجاحظ للفظ عن المعنى فتجده يقول : " و أدى به شغفه بجودة اللفظ و حسنه و بهائه إلى أن قدمه على المعنى "[3]، و في نفس الصفحة يدقق رأيه فيقول :"على أنه لم يسقط المعاني جملة ، فقد كان يرى رأي العتابي من أنها تحل من الألفاظ محل الروح من البدن"[4]، غير أن الجاحظ في الحقيقة لم يهتم باللفظ مفردا بل اهتم بالطريقة التي تنتظم بها الألفاظ بالمعاني في الخطاب و بإبرازه لأهمية اللفظ داخل عملية البناء ، فقد نظر إلى ضرورة السبك و الذي عرفه فيما بعد عند عبد القاهر باسم النظم فنرى الجاحظ يقول : "فأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج، فيعلم بذلك أفرغ إفراغا جيدا ، و سبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان "[5]، فالجاحظ الذي قال بأن المعاني مطروحة في الطريق، قال في رسالة "مدح التجار" : "شر البلغاء من هيأ رسم المعنى ، قبل أن يهيئ المعنى عشقا لذلك اللفظ و شغفا بذلك السم ، حتى صار يجري إليه المعنى جرا"[6]، و عليه فإن القول بأن الجاحظ إنما قصد بالمعاني المطروحة في الطريق تلك المعاني التي تشترك فيها كافة الناس و التي هي أصول المعاني، ومعرفتها من قبيل الضروريات ، أو هي

[1]– شوقي ضيف ، البلاغة تطور و تاريخ ، ص 57.

[2]– المرجع نفسه ، ص 49–50–51.

[3]– المرجع نفسه، 52.

[4] – المرجع نفسه،

[5]– الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص 254.

[6] ينظر: رسالة في مدح التجار و ذم السلطان ضمن رسائل الجاحظ.

المعاني المفردة البائنة بصورها كما سماها الجاحظ نفسه، أما المعاني الشريفة ، فهي تلك المعاني التي لا تمتلك ناصيتها إلا خاصة من البلغاء و الفصحاء.

و في المقابل وقفت بعض الدراسات الحديثة التي قرأت مقولة الجاحظ من زاوية أخرى ونجدها هنا دراسة "أحمد مطلوب" الذي استنتج بأن النص السابق لا يعني أنه يميل إلى اللفظ كل الميل و أنه يهمل المعنى كل الإهمال يقول " إن الحق أن عُنيَ بالمعنى كما عُنيَ باللفظ"[1] و الموقف ذاته يتبناه الناقد "أحمد بدوي" الذي حرص جاهداً على تأكيد الموازنة في كلام الجاحظ بين قيمة الألفاظ و قيمة المعاني انطلاقا من مقولة الجاحظ.[2] و بالتالي بات من الضروري الإقلاع عن فهم قول " المعاني المطروحة" على أنه غض من المعنى و إعلام من شأن اللفظ لأن في ذلك كما يقول الوردني " تعميماً لا تبيحه فلسفة الرجل البيانية فالجاحظ عندما أقر بالمعاني مطروحة في الطريق فإنما يشير إلى الرصيد المعجمي المشترك الذي يتفق أفراد المجموعة اللغوية في التمكن من معانيه ليحصر التفاضل بينهم في مسالك التعبير عن تلك المعاني، لذلك لا ينبغي عزل ما يقوله الجاحظ عن سياقة و فصله عن تصوره البياني العام و أصول تفكيره العقائدي ، و من ثم التسرع في جلعه رأسا لما سماه بعضهم بالتجاه اللفظي دون تمييز بين المعنى اللغوي و المعنى البياني العام"[3].

ولبيان موقف الجاحظ إزاء هذه القضية على الباحث في تقديرنا أن لا يتجاهل المواد البلاغية الموجودة في غير البيان و التبيين و الحيوان كالرسائل و البخلاء كونها مواد علمية هامة لا يمكن تغييرها من يروم دراسة تفكير الجاحظ البلاغي[4].

1-3. إحسان عباس:

[1] – أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته و نقده ، ط1 1973 بيروت لبنان ص 91.

[2] – للإستزادة، ينظر: أحمد بدوي أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، ط1، 1999، 165-167.

[3] – أحمد الوردني، في قضية اللفظ و المعنى و نظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن 7ه/13م المجلد الثاني ، دار الغرب الإسلامية ، بيروت لبنان، ط1، 2004 ص 760.

[4] –حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص17.

رغم أن قراءة إحسان للجاحظ و جهوده و إنتاجاته كانت من منظور نقدي إلا أنه ضمنها كثيرا من الملاحظات البلاغية لأن الجاحظ يقدم نقداً قائما على بعض المفاهيم البيانية والبلاغية فمن ملاحظات إحسان عباس كما يلي:

– إشارته إلى كتاب الجاحظ المفقود في نظم القرآن فقال:" و يمثل كتابة في " نظم القرآن" حلقة ما تزال مفقودة تتوقع أن يكون للجاحظ فيه و به نظرات نافذة في مجال النقد حسبما تعودنا أن نجد في كتبه التي وصلتنا"[1].

– معالجته لرأي الجاحظ في قضيته اللفظ و المعنى، و تقديمه للأول على الثاني، حينما قال قولته الشهيرة عن المعاني المطروحة في الطريق، فقد علل إحسان عباس هذا الرأي بعدّة أمور من بينها:

أولا: أنه لم يتابع أساتذة النظام في قوله بالصرفة تفسير الإعجاز، و إنما وجد أن الإعجاز لا يفسر إلا عن طريق النظم، و من آمن بأن النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى االإعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنى تقديم المعنى على اللفظ.

ثانيا: أن عصر الجاحظ كان يشهد بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لتبيان سرقة المعاني بين الشعراء ولا نستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على هذا التيار بأن يقرر من الأفضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعا.[2]

ثم أشار إحسان عباس إلى التداعيات السلبية لنظرية المعاني المطروحة على تاريخ البلاغة قال: "و لم يكن الجاحظ يتصور أن نظريته التي لم تكن تمثل خطرا عليه ستصبح في أيدي رجال البيان خطرا على المقاييس البلاغية و النقدية لأنها ستجعل العناية بالشكل شغلهم الشاغل[3] و لا شك أن الإشكال ليس في نظرية الجاحظ و إنما في توظيفها السيء من البلاغيين المتأخرين.

[1] – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة لبنان، بيروت، ط4، 1983، ص 95.

[2] – المرجع نفسه،ص98.

[3] – إحسان عباس، تاريخ النقد الادبي عند العرب،ص99.

1-4. عند بدوي طبانة:

يرى بدوي طبانة أن الجاحظ أول كاتب في البيان العربي، و أول مؤلف فيه، و كتابه البيان و التبيين، موسوعة كبرى، فقد تناول فيه أكثر فنون الأدب و أركانها، بأسلوبه الذي يغلب فيه الاستطراد، و حشد فيه كثيرا من نصوص الأدب و فنون الكلام، و أبان عن رأيه فيها، حتى وصفه أبو هلال العسكري بأنه أكبر كتب البلاغة و أشهرها، أما عن المنهج العلمي فيرى طبانة أن الجاحظ قد بعد عنه لهذا لا نجد التنظيم و لتقسيم.[1]

ثم تناول موضوعات الكتاب فذكر أن البيان عنده صور الاقتدار على الكشف عما في النفس، و أن سبب هذا البحث المستفيض حول مفهوم البيان هو الرد على الشعوبية، مفضلا العرب و بلاغتهم القائمة على الطبع و البديهية، في مقابل بلاغة العجم القائمة على الرؤية طول التفكير [2] .كما وقف عند الباب الخاص الذي عقده الجاحظ عن معنى البيان في كتابه فذكر فيه أقوال العرب و غيرهم في ذلك، و دخل من ذلك إلى أصناف البيان و الدلالات المختلفة بالإشارة و الخط و العقدة النصية.[3]

و هكذا فصل بدوي طبانة في مسألة تعريف الجاحظ بين البيان و البلاغة فقرر أن البيان أعم من البلاغة، لأن " البيان" "يكون بأي دلالة من الدلالات الخمس، أما البلاغة فيكون الأدب و التعبير فقط، و الدليل على ذلك تلك التعاريف الكثيرة التي نقلها في حد البلاغة من العرب و العجم ثم نبه على مذهب الجاحظ في صناعة الشعر القائمة على النسيج و الصياغة والتصوير عن مذهب البديع و أنه مقصور على العرب، كما أشار إلى كثير من الفنون البلاغية التي عالجها الجاحظ و وضع مفاهيمها و مصطلحاتها فقال: " و يلاحظ أن بعد ذلك أن هذه

[1] – ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجا... المصرية، ط2، 1958، ص 50.

[2] – ينظر المرجع نفسه، ص 45–49.

[3] – المرجع نفسه، ص 53–55.

الفنون البلاغية التي ذكرناها و التي فاتتنا الإشارة إلى بعضها، لا تختص بالبيان وحده كما حدد مباحثه البلاغيون ما بعد، و إنما فيها من مباحث علوم البلاغة الثلاثة، البيان و المعاني ، و هكذا اسم البيان، شاملا لعلومها الثلاثة، لتعلقها جميعا بالبيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب ما في الضمير.[1]

فمعنى هذا أن البيان عند الجاحظ داخلة تحت كل علوم البلاغة الثلاثة عند المتأخرين و وليست تحت علة علم البيان وحده، ما يعني أن البيان عند الجاحظ أعلم من البيان الذي هو أحد علوم البلاغة.

و ختم قراءته لجهد الجاحظ ببيان مكانته قائلا: و يبرز فصل الجاحظ و يكبره أنه صاحب و دراسة مستوعبة في كتاب كامل يحمل اسم البيان صريعا، و قد أسلفنا أن كلمة البيان في ذهن الجاحظ و كما تبرز المراد من دراسته تشمل ما يقصده غيره بألفاظ و مصطلحات أخرى مثل كلمة البلاغة و الفصاحة، و كلتاهما ترد كثيرا في ثنايا البحث، و في تقوله عن العارفين ببلاغات الأمم الأخرى، كما أنها ترادف كلمة الأدب بمعناها المصطلح عليه في أيامنا"[2]

و في هذا تنويه بمكانة الجاحظ و كتابه في تاريخ البلاغة العربية و دوره المركزي و الريادي في تأدية البيان العربي...

الدليل على هذا أن يدعي طبانة ذكر بعد كلامه عن الجاحظ حضور فكرة البيان إلى صورها أثناء كتابه في تراث من بعده من النقاد و البلاغيين، فنتكلم عن ابن قتيبة و ثعلب والمبرد و ابن المغفر.[3]

5- عند شفيع السيد:

[1] – بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص 58–61.

[2] – المرجع نفسه، ص 62.

[3] – بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص 62.

ذكر شفيع السيد أن البحث البلاغي عن العرب استند إلى مصادر متنوعة في تكوينه هي: الدراسات القرآنية و الإعجازية و بلاغة اليونان و تقاليد الفن في البيان العربي، هذا المصدر الأخير قصد به تلك الكتب المؤلفة في الأدب و البيان، و على رأسها كتب الجاحظ الذي وضع البنية أولى البيان العربي بكتابه الموسوعي العظيم البيان و التبيين، و لا غرورا اذا وصفه بعض الباحثين النقاد بأنه مؤسس هذا البيان.[1]

لثم تحدث عن طريقة الجاحظ أن تناول قضايا علم البيان فذكر أن كتابه بصورته الاستطرادية لا يبدو أنه كتاب لتأصيل هذا العلم، و لكن الواقع أن موضوعاته مبثوثة هنا وهناك في تضاعيف الكتاب فقال: و الكاتب بهذه الصورة يبدوا بعيدا عما نحن بسبيله لكن الواقع أنه في ثنايا النصوص و الأخبار و الطرائق تناثرت أصول كثير من الموضوعات و الصور البلاغية التي كانت بذور لمباحث متعددة، نماها اليونانيون بعده و انطلقوا منها، و بنوا عليها و لن تُعنى هنا بتتبع كل تلك الأصول و حسبنا أن نركز على أهمها و أكثر خطرا في البحث البلاغي ، على أن بعض ما عرض له الكتاب جاء فكرة متكاملة لم يكد البلاغيون يزيدون عليها شيئا فيما بعد"[2]

ثم شرع في سرد أهم تلك الأصول و هي:[3]

أولا: قضية نقاد الكلام ز سلامته من تنافر الحروف و الألفاظ.

ثانيا: قضية مطابقة الكلام بمقتضى الحال و هي أصل علم المعاني.

ثالثا: الاستعارة و المجاز.

6. عند مُحَّد علي صباغ:

[1] – شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم ، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 64.

[2] – المرجع نفسه، ص 65.

[3] – – شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم ، ص 65-68.

ما سبق من آراء عن مكانة الجاحظ مأخوذة من دراسات عامة، غير أن هناك دراسات خاصة فردت للجاحظ و مكانته في تأسس علوم النقد و البيان.

من تلك الدراسات المفردة كتاب البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين الذي استقصى مألفه مُحَّد الصباغ جهود الجاحظ الموسوعية في مجال البلاغة و الشعر، حيث تطرق إلى علوم البيان المختلفة و ربطها بأصولها الأولية عند الجاحظ، ما يدل في الأخير على الرتبة العالية له في تاريخ البلاغة الطويل و أنه مؤسسها بحق حتى قال عنه صاحب الدراسة: " لا يسعنا إلا الشهادة بسمو مقامه ، وندرة نوعيته.... ترجم كل ما طاولته عيناه و سمعته أذناه، حتى غدا مدونة علوم البلاغة، و مرجع المحدثين، ترك إرثا لا تقدر قيمته، فحاز قصب السبق في مضماره لأنه غاياته كانت سامية، فاستحق حسد الحاقدين على العرب، هو مدرسة بحد ذاتها، علم ذكره الآفاق، فأحبه كل من عرفه أو سمع به أو قرأ له، و سارع أهل المعرفة للاعتراف من بحره،[1] و هذه الشهادة جاءت بعد دراسة مطولة و عميقة و استقصائية لدور الجاحظ و بلاغته الشعرية في كتابه البيان و التبيين.

7. عند مُحَّد عبد الغني المصري:

عن الدراسات المفردة عن الجاحظ أيضا دراسة مُحَّد عبد الغني المصري نظرية أبي عثان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي" [2] و هي إن كانت في مجال النقد، حيث حاول صاحبها صياغة نظرية متكاملة في النقد تكون آثار الجاحظ مرجعا لها، إلا أنه يمكن من خلالها الوقوف على مكانته تأسيس البيان العربي لأنه عنصر مهم في نظريته النقدية لأن البلاغة قديما كانت تتداخل مع النقد.

[1] – محمد صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ، اشراف و مراجعة ياسين الأيوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 ، 1998، ص 339.

[2] – صادرة عن دار حدلاوي للنشر و التوزيع الأردن، عمان، ط1، 1997.

و بهذا نقول بأن الجاحظ كان يحظى عند القراءة المعاصرين بمكانة كبيرة تتمحور في دائرة مؤسس الأول للبيان العربي، و كل من جاء بعده فقد استفاد منه و انطلق من توجيهاته تقريراته التي نثرها في مدوناته الكبرى، ككتاب "البيان و التبيين" و كتاب "الحيوان" و الكتاب المفقود في نظم القرآن.

و بالرغم ممّا وّجه يكتب الجاحظ من قراءات نقدية متباينة، لإن الثاني في استخلاص النظريات التي تحكمه و تلمس عناصر القوة و الأصالة فيه واجب.

المبحث الثاني: الجاحظ في أثر البلاغيين القدامى:

" و أبو عثمان الجاحظ ، فإنك لا تجد مثله و إن رأيت ما رأيت رجلا أسبق في ميدان البيان منه، و لا أبعد شوطا ولا أمدّ نفساً، ولا أقوى منه إذ جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهور .... فمتى رأت كلامه رأيت حوكا كثيراً لوشي، قليل الصنعة، بعيد التكلف، مليح الغطل، له سلاسة كسلاسة

الماء، و رقة كرقة الهواء..... سبحان من سخّر له البيان و علمه، و سلّم في يده قصب الرهان و قدمّه / و إن جدّ لم يسبق و إن هذل لم يلحق و إن قال ملم يعارض و إن كست لم يعوض له"[1]

لقد استوقفتنا براعة الجاحظ و بلاغته و بيانه العديد من الأدباء و البلاغيين و ها هو ذا أبو حيان التوحيدي لا يخفي شغفه بالجاحظ وولعه ببلاغته التي يرى بأنها ضرب فريد من الإبداع لا تتأتى محاكاته إلا لمن امتلك الشروط التي تهيأت للجاحظ و التي ليس من أسهل أن تجتمع في غيره، فألف كتاباً في تقريظه و الإثراء عليه.

و ها هو ابن خلدون يصوّر لنا في مقدمته رأي قدماء العلماء في كتاب البيان و التبيين للجاحظ بوصفه أهم تصانيفه، إذ يقول " و سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن و أركانه أربعة دواوين: و هي "أدب الكاتب" لابن قتيبة و كتاب "الكامل" للمبرء و كتاب "البيان و التبيين" للجاحظ، باعتباره و كتاب "النوادر" لأبي علي القالي و ما سوى هذه الأربعة فتتبع لها و فروع منها"[2] فكلام ابن خلدون هذا يظهر لنا مدى أهمية الجاحظ باعتباره " قامة أدبية سامقة، كان له الأثر البليغ في توجيه الفكر العربي بحيث عُدّ أحد مؤسسي البلاغة النظرية العربية القديمة"[3] و إن شكلت ردود المتلقين الأوائل لنصوص الجاحظ تلقينا مهما خاصة و أنها أولى المحاولات التي اطلعت على أطروحات الجاحظ و بالتالي فقد اشت قيمة و أهمية كبرى باعتبارها أولى اختبار لقيمتها المعرفية.

ونجد من القدامى مِمَنْ أثنى على مؤلفات الجاحظ المسعودي إذ يقول " تجلو صدأ الأذهان ، و تكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف وكساها من كلامه أخزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ خرج من جدّ إلى هزل، ومن حكمة بليغ إلى نادرة طريقة ، وله كتب حسان منها كتاب البيان و التبيين ، و هو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور و المنظوم، و

[1] – أبو حيان التوحيدي، البصائر و الذخائر تحقيق ، ابراهيم الكيلاني مكتبة أطلس و مكتبة الافتاء، 1964 ج1، ص 231 ص 232.

[2] – ابن خلدون، المقدمة ، تحقيق حجر عاصي دار الهلال، بيروت، 1983 ص 343.

[3] – محمد مشبال، البلاغة و السرد ، منشورات كلية الآداب ، ط1، 2010، ص 7.

مستحسن الأخبار و بليغ الخطب، مالو أقتصر عليه لاكتفى به، وكتاب ابعده من البلاغيين ، الحيوان و البخلاء و سائر كتبه ي نهاية الكمال"[1]

لقد مثلت كتب الجاحظ و مؤلفاته نبراسا لكل من أتى يسعى إليها الباحثون من كل الميادين و على مر العصور: " و على الرغم من أن الجاحظ لم يغرد قديما-يكتب تتدبر أساليبه بالوصف و التصنيف و التفسير لأن الإشارات التعليلية التي بثها القدماء في ثنايا كتبهم تعبيرا إسهاما في تشكيل هذه البلاغة التي حيرت عقولهم"[2] فما لهم إلا أن يعد و الجاحظ المؤسس الأمل لها باعتباره أول من اجترح هذا العلم.

لقد انصرفت أراء النقاد و الباحثين البلاغيين القدامى أكثر ما انصرفت إلى المنجز البياني عند الجاحظ ووقفوا أكثر شيئ عند المادة الاولية التي بثها الجاحظ في ثنايا كتبه إذ نراه في " البيان والتبيين" يشير إلى السجع و الازدواج و الاقتباس و التفسير و الغزو و الأسلوب الحكيم والاحتراس و الهزل الذي يراد به الد، و الاعتراض و التعويض و الكناية و الاستعارة ليمتلئ كتابه

" الحيوان" بإشارات دقيقة إلى الحقيقة و المجاز و التشبيه و الاستعارة و المثل و الكناية و كرر الحديث عن البديع و نفذ إلى ما سماه المذهب الكلامي كما عرض للسرقات،[3] ولا تسمى ما تضمنته رسائله من إشارات بلاغية و بالرغم من أنه لا يُضع هاته المسائل في قوانين محددة وتعريفات دقيقة، إلا أنه تمكنه من تصويرها في أمثلة، بحيث استطاع أن يمثلها كل من خلفه تمثيلا واضحاً [4] يتجلى لنا القضايا و المشكلات التي أثاره من خلفه من البلاغيين و كانت امتداد لما جاء به.

سنحاول في هذا المقام أن نتعرض لبعض البلاغيين و الأدباء القدامى الذين وُجِدت في مؤلفاتهم صدى لما جاء به الجاحظ.

[1] – المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر ، شرح و تقديم مفيد تميجة ج4، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ص 223.

[2] – حسن السندوبي، أدب الجاحظ المكتبة التجارية، القاهرة، 1931– ص 79.

[3] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 369

[4] – ينظر: المرجع نفسه، ص 58.

2-1. ابن قتيبة (276هـ):

لقد عاصر ابن قتيبة الجاحظ، فكان على رأس هؤلاء المتلقّين الأوائل الذين قرأوا طروحات الجاحظ و علقوا عليها ، و بالرغم من كراهية ابن قتيبة للمعتزلة واضحة ألا أنّه كان سببا محافظا إلا كان نسبيا محافظا، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يوافقه في بعض ما جاء به حتى مخالفته في بعض منها ، و مؤلفاته على اختلافها لم تخل من إشارات بلاغية، إذ جمع مؤلفه " تأويل شكل القرآن وجوها بلاغية عديدة و يشير شوقي ضيف بأن ابن قتيبة قد ألف كتابه هذا ليحق الحق و يبطل الباطل ، عارضاً فيه بعض أي الذكر الحكيم مستشهداً لها بنصوص من الشعر ليقيم الدليل على ما يقوله و يسقط دعوى للطاغين و يمحوها و كأنه يستمد في ذلك من عمل الجاحظ في إزاء بعض الآيات القرآنية على مطاعن الملاحدة.[1]

إن ابن قتيبة يشترك مع الجاحظ في طروحات نقدية مختلفة من مثل تبينه موقف الجاحظ فيما يخص عيني " التقعير و التعقيب اللذين ذكرهما ابن قتيبة في أدب الكاتب" فيهما من المأخوذ التي سجلها الجاحظ في حديثه عن بعض عيوب الخطباء قال:" علم أبقاك الله أن صاحب التشديق والتقعير و التقعيب من الخطباء، أعذر من عي يتكلف الخطابة "[2] و هذا إنما يدل على متابعة ابن قتيبة لآراء الجاحظ، رغم هجومه عليه في بعض الأحيان. أما في كتابه " الشعر و الشعراء" فنجد فيه ابن قتيبة يتعرض لقضية الشعر اللفظ و المعنى البسيط الحديث فيها، إذ " مضى في مقدمة كتابه يسوي بين اللفظ و المعنى في البلاغة و كأنه يريد أن يرد على الجاحظ من صبه في تقديم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام فقد جعل للمعنى مزيته هو الآخر في البلاغة و قسم الكلام على هذا الاساس، إلى ما حَسُنَ لفظه و معناه، و ما حسن لفظه دون معناه، و ما حسن معناه دون لفظه و ما قبح في لفظه و معناه.[3] و قضية اللفظ و المعنى من أهم المسائل و تحدث فيها الجاحظ في البيان و

[1] – المرجع نفسه ص 58.

[2] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1،ص 13.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، ص 60.

التبيين و هي ثنائية الطبع و التكلف و للحقيقة أن ابن قتيبة لم يخرج في تناول هذه المسألة عن الحدود التي رسمها الجاحظ و غن زاد عليه بعض الشروح و الشواهد و التوّسع في التعريف.[1]

و الخلاصة أن ابن قتيبة قد يتبع الجاحظ ففي كثير من آرائه و كان من اكبر المستفيدين من مجهودات البلاغيين و القدامى ممن سبقوه سواء من أبي عبيدة أو الفراء و حتى الجاحظ فالبرغم من اختلافاتهم العقائدية إلا أن ابن قتيبة خصم الجاحظ لم يستطع من وجهة نظر عقائدية رغم فورات الغضب التي تتشابه و هو يستعرض بعض آرائه، أن يفلت من تسلط كثير من آراءه اللغوية والبيانية.

2-2. ابن المدبر (279هـ)

نجد صدى الجاحظ عند ابن المدبر في محاولته المرسومة بـ " الرسالة العذراء" و التي عدّها الباحثون من المؤلفات التي لم يخرج فيها صاحبها عمّا قال به الجاحظ في كتابه " البيان و التبيين" "إذ اكتفى فيها بنقل بعض الأحكام و الجفاف"[2]، و لأن صاحبها يتحرك من موقف الدفاع عن الكتاب و الكتابة فقد وجد لنفسه سنداً فيما جاء به الجاحظ من تنويه بطبقة" الكتاب فنقل رأيه في تفوقهم في البلاغة و التزامهم في التماس اللفظ المنزلة الوسطى" [3]كما نجد صاحب الرسالة قد أخذ عن الجاحظ رأيه في علاقة اللفظ بالمعنى، و نفس رأي الجاحظ يتبناه فيما يتعلق ببلاغة القول و تأثيره في المتلقي، كما نجده ينتقل عن الجاحظ جَلّ نصوصه فيما يخصّ حدّ البلاغة و ينتصح نفس نهج الجاحظ في تقسيماته لها.

[1] – حمادي حمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 341.

[2] – حمادي حمود، التفكير البلاغي عند العرب ، ص 316.

[3] – المرجع نفسه، نفس الصفحة

صحيح أن رسالة " ابن المدبر" جاءت في مقاييس ضاعت الكتابة إلا أن كلّ تلك المقاييس تقريبا أخذها صاحبها بنصّها من مؤلفات صديقه الجاحظ[1] مما يدّل على تبنيه للكثير من مواقف الجاحظ.

2-3. المبرد(ات 285 هـ):

معروف أن المبرد من تلامذة الجاحظ، و لذلك فقد اهتم اهتماماً واسعاً بآرائه البيانية ، فرو ى عنه في أكثر من موضوع في كتابه " الكامل" الذي تعمق فيه دراسة وجهين بلاغيين بشكل لافت هما التشبه بالدرجة الأولى و الكناية بالدرجة الثانية.

يعتبر هذا من الكتب التي عدّت من كتب الأدب الأربعة الأساسية كونه معرض جيّد لنماذج شتى من الشعر و النثر، و فيه يتأثر المبرد بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان فيشير إلى الحقيقة و المجاز و الاستعارة و يتحدث عن الكناية و يوزعها إلى ثلاثة أنواع، و يجعل التشبيه أربعة أضرب..."[2] فيأخذ الكثير من المباحث البيانية عن معلمه نذكر منها أيضا حديثه عن" بلاغة الاختصار المفهم والإطناب المفخم و الإيماء و الإشارة و مقاييس جودة اللفظ و الكلام كما ترسم خطاه في مستلزمات الخطابة و اعتنى مثله عناية فائقة بعيوب الخطيب و النقائض التي تخترق خطابته"[3]

كذلك مما تأثر به عن الجاحظ ما ورد في رسالته في البلاغة و إن لم تتناول علم البلاغة بالدرس و التبويب و التحديد فقد وضع فيها حدا للبلاغة " غير أن الناظر في هذا الحدّ يلاحظ أن المبرد لم يبتدع أي طرف من أطرافه فجميعها موجودة بلفظه أو بمعناه في المؤلفات السابقة، و في البيان و التبيين على وجه الخصوص إلا أن الطريق في الأمر أن المبرد قام بعملية تأليف بين مجموعة من

[1] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي، دار المعارف، ط، ص 519.

[2] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي ، ص519

[3] – حمادي حمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 357.

التعريفات حتى تخرج جداً جامعاً، و لذلك فإننا لم نقف قبله عن تعريف يعادل تعريفه شمولاً [1] هكذا إذا اقتضى المبرد أثر أشاذه و جعل من بعض مسائله البيانية منطلقا لبحثه البلاغي.

2-4. أبو السير ابراهيم مُحَمَّد الشيباني (298هـ)

و نتلقى ما هنا بكاتب بغدادي تخرّج على بد كتاب بغداد العظام، صنف هذا الأخير رسالة بديعة في موازين البلاغة و أدوات الكتابة سماها " الرسالة العذراء" " و أبو السير بذلك كله يلتقي بذوق علماء الكلام" [2] و على رأسهم الجاحظ فيستضيئ بهم جميعا، " فيدعوا من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمر في نزع آي القرآن الكريم و وضعها في موضعها، كذلك الامثال و الأشعار وإن كانت هذه الأخيرة لا تستجيب في مخاطبة الخلفاء، و هو في الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة "[3] فقد اخذ منه كثيرا في رسالته فنجده في بعض المواضع" يطالب بإلحاح كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة في الكلام و طبقات الناس فيشبه بضرورة المشاكلة بين الألفاظ والمعاني حتى توضح الألفاظ في مواضعها و تننزل مواطنها"[4] و يمضي كذلك في أثر الجاحظ، و يروى بعدم الإيجاز المفرط في الرسائل و ضرورة توخي الألفاظ المبهمة، و الابتعاد عن الحوشي و المبتذل و ينتقل عنه بعض كلامه في هذا كما نجده يسوق صفحات جلبها من " البيان و التبيين" فيما تعلق بتعريف اليونان و الفرس للبلاغة، ولا يكتف بذلك، بل ينتقل أيضا الصحيفة التي دونها الجاحظ عن الهنود و في البلاغة.[5]

و كل هذا غنما هو دليل على أن أبا اليسر قد وضع نصب أعينه في كتابه " لرسالة العذراء" ما جاؤ به ابن قتيبة و الجاحظ، خاصة هذا الأخير فقد كان له الأثر العميق في الرسالة.

2-5. الرماني:

[1] – المرجع نفسه، ص 345.

[2] – شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي، ص 521.

[3] – المرجع نفسه ، ص ن

[4]– شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي، ص 521.

[5] – المرجع نفسه، ص 523.

لقد كانت مقولة الجاحظ حول " المعاني مطروحة في الطريق" بمثابة الأولى في تاريخ النقد الأدبي لبسط أفكار هامة" سيطرت على أجيال طويلة من البلاغيين و النقاد من بعده"[1] و لعل أهم هذه الرسائل فكرة التصوير التي أطلقها الجاحظ" فإنما الشعر ضاعة و ضرب من النسيج و جنس من التصوير، و رغم أن هذا المصطلح قد استخدم قبل الجاحظ إلاّ أنه هنا يكتب دلالة خاصة"[2] وقد ورد في كتبه: " الحيوان" و " البيان و التبيين" و في رسائله أيضا : و فيها طرح فكرة الجانب الحسي و قدرته على إثارة صور بصرية في ذهن المتلقي" و رغم أن الجاحظ يم ينمي هذه الفكرة ويطورها إلا أنه مهد بها إلى فكرة التصوير الأدبي عند البلاغيين و النقاد، و لعل أولى المحاولات في تطوير هذه الفكرة في الدراسات الأسلوبيبة للقرآن و حسب جابر عصفور للرماني الذي " التقط خيط الفكرة و حاول أن يعمقها و يطورها، بالرغم من أنه لم يلّح على استخدام المصطلح ذاته".[3]

لقد توقف الرماني أمام مشكلة الإيجاز، و حاولنا أن يربط جانب منها ببلاغة النص القرآني وطريقته القدرة في تقديم المعنى إلى المتلقي، و كان من الضروري أن يواجه التشبيه و الاستعارة ويتأمل قدرة كل منهما على التأثير فيمن يتلقى النص القرآني.[4] و من خلال تعرض الرماني في ضوء هذا المفهوم لبعض آيات القرآن و تشبيهاته تتناول معنى أصليا أو مجرداً و تقدمه تقديم ومحسوساً و ذلك عن طريق ربطها المعنوي المجرد بالحسي العيني و بهذا القهم أو بهذه النتيجة أصبحت البلاغة التشبيه و الاستعارة القرآنية و قدرتها على تصوير المعنى و كذلك صد لما جاء به الرماني عم عند ابن الجني و العسكري اللذان تبنيا نفس الفكرة.

2-6. عبد الكريم التهمثلي:

[1] – جابرعصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي ، ط3، 1992 الدار البيضاء المغرب، ص 211.

[2] – المرجع نفسه، ص 255-256.

[3] – جابر عصفور، الصورة النسبية في التراث تالنقدي و البلاغي عند العرب ص 260-261.

[4] – المرجع نفسه، ص 260-261.

و هو أستاذ ابن رشيق و من أبعد الشخصيات تأثيرا فيه، ألفّ كتاباً أسماه " الممتع في علم الشعر وعمله" و الذي قبل بأن بعض أبواب العمدة إنما وُسِمت على مثاله، و ما يهمنا هنا هو اخذه عن الجاحظ، فقد كان عبد الكريم " ممن يقدمون اللفظ على المعنى"[1] كما أنّه قد كرّر في موقفه من السرقات آراء من سبقوه، و ذهب إلى أن للمتفق عليه هو أن السرقة ما نقل معناه دون لفظه و كان مبعداً في الأخذ"[2]

غير أن أكبر مسألة قد أثارها هذا الأخير هو أثر اختلاف البيئات عامة في الشعر، و هو رأي كان قد قال به الجاحظ ،كما أنه قد تحدث فيه " البيان و التبيين" عن تباين اللهجات في الأمصار " و لكن عبد الكريم قد نقل هذا إلى مستوى جديد حين، تحدث في افريقية عن اختلاف إقليمي يترك أثره في الشعر، و بدلاً من أن يذهب إلى اكشاف هذا الإتجاه الإقليمي رأى أن الشعر الخالد الذي يبقى عابر على الدهر ليس هو الذي يتشبث بملائمة البيئة الإقليمية و إنما هو الذي ينبني على التجويد و التحسين "[3] و هذا الرأي و هذا الرأي اعتنقه تلميذ ابن رشيق و دافع عنه في بعض مؤلفه .

2-7. ابن رشيق القيرواني

لقد تحدث ابن رشيق في كتاب " البيان و التبيين" فيذكر فضل صاحبه في باب " البيان" من كتاب " العمدة" فيقول: " و قد استفرغ أبو عثمان و هو علامة وقته الجهد وصنع كتاب لا يبلغ جودة و فضلا، ثم ما إدّعى إحاطة بهذا الفن لكثرته....."[4] و كذلك من الطروحات أو المواقف التي صاغها الجاحظ و كان لها بالغ الأثر في كتاب العمدة قوله " و الاسم بلا معنى لغوي كالظرف الخالي، و الاسم في معنى الأبدان و المعاني في معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدن و المعنى للفظ روح"[5]

[1] – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب دار الثقافة بيروت، لبنان، ط4، 1404ه، 1983م، ص 442.

[2] – المرجع نفسه، ص 444.

[3] – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص 444

[4] – ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تح محي الدين عبد الحميد، ط4، 1972، ج1، ص 257.

[5] – الجاحظ، رسالة في الجد و الهزل، تح الحاجري القاهرة، 1993، ص 85.

و في المسألة ذاتها سيؤلف ابن رشيق قولته السائرة " اللفظ جسم و روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعفه و يقوي بقوته"[1]

2-8. ابن المعتز:

لقد عُدّ كتاب " البديع" لابن المعتز نقطة تّحول في مسار الدراسات البلاغية و هذا بإجماع من أغلب الباحثين و البلاغيين، فقد جمع في مؤلفه هذا كل ما اتصّل بالبلاغة من مسائل كان قد أثارها من سبقوه، فاستغّل هذه المادة المعرفية التي وفرتها تلك المؤلفات لبروزه، و كذلك يستصيغ ابن المعتز من تعريفات ابن قتيبة و الجاحظ خاصة للكناية و التعريض و الاستعارة و غيرها من المسائل التي استقى فيها ابن المعتز الجاحظ و سار على دربه.

2-9- عبد القاهر الجرجاني:

لقد تعددت الروافد الفكرية و المعرفية التي نهل منها الجرجاني، فقد أخذ عن كثير من العلماء و البلاغيين الذين سبقوه إلى أن استوت و اكتملت على يده لأصول الكبرى لعلم البلاغة.

ومن أهم المسائل البلاغية التي عالجها الجرجاني و إليه نُسبت نظرية النظم التي تضمنها كتابه " دلائل الإعجاز" حين أثبت أن الشأن في الكلام للنظم لا للألفاظ المغردة، ثم كتابه " أسرار البلاغة" و الذي تحدث فيه عن مسائل متنوعة كالتشبيه و الاستعارة و كلّها مباحث تنطوي تحت علم البيان.

لقد اعتمد الجرجاني في مؤلفاته على الكثير من المسائل التي أثارها الجاحظ غير أن أهم تلك القضايا هي مقولة الجاحظ حول " المعاني المطروحة" أو قضية اللفظ و المعنى .يقول عبد القاهر الجرجاني في " دلائل الإعجاز:

" ثم قال [قاصداً الجاحظ] و ذهب الشيخ [يقصدها هنا أبو عمر الشيباني] إلى استحسان المعاني و المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي و العجمي و القروي و البدوي، و إنما الشأن في

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص 124.

إقامة الوزن و تخير اللفظ و سهولة المخرج، و صحة الطبع، و كثرة الماء و جودة السبك، و إنما الشعر صناعة و ضرب من التصوير".

لقد انطلق الجرجاني من هذا القول ليفسر و يشرح ما أراده الجاحظ بقولته هذه " لينْفذ هذا الأخير فهم دقيق إلى سّر مشكلة طال حولها الأخذ و الردّ ، فوجهه رأي الجاحظ توجيهاً ملائماً لما نعتقد أن الجاحظ رمى إليه" [1]، لقد انطلق الجرجاني في قراءته للجاحظ " إن الشعر صناعة وضرب من التصوير" من أنه التصاق صرف بالألفاظ و بالجانب الشكلي من الكلام حيث أن تعرف مكان الفضل و المزية في الكلام أن تنظر إلى مجّرد معناه، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه، أن لا يكون تفضيل له من حيث هو شعر و كلام و هذا قاطع .[2] فقد جعله من أنصار اللفظ ثم أضاف كلمة النظم و هو شيء لم يقل به الجاحظ: بحيث رام بداية بيان أن الجاحظ ليس من أنصار اللفظ، إذ يرفض الجاحظ أن يكون حسن الكلام من لفظه، و لا في معناه ، بل في تنسيقه و تركيبه و في تراصه و هو ما يظهر من خلال قوله " و الشعر صناعة و ضرب من التصوير" ثم أوضح عبد القاهر السر بين مجيء عبارة الجاحظ عمّا وردت إليه بأنه " لما كانت المعاني إنما تتبين بالألفاظ و أنه لا سبيل لترتيبها و جمع شملها إلا ترتيب الكلام في نطقه، فكنّوا على ترتيب المعاني بالألفاظ ثم بالألفاظ يحذف الترتيب"[3] و بالتالي المراد من قوله " ذهب الشيخ لاستحسان المعاني" هو استحسان أبي عمر و الشيباني لقول من قال:

لا يحسبّن الموت موت البلى إنما الموت سؤال الرجال

كلامهما موت و لكن ذا أقطع من ذاك لذل السؤال

ذلك أن ليس تحت هذين البتين شيء يستحق أن يستحسن، و إنما تحيّزَ لها الشيخ لما في الوعظ، و التنفير من ذل السؤال، فالمعاني التي حكم الجاحظ بإطراحها في الطريق هي: " أصول المعاني"

[1] – احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص 423.

[2] – ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 197.

[3] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإجاز، ص 51.

المشتركة بين كافة الناس فالجاحظ لا يستوي بين المعاني كلّها عند الناس جملة، و هذا ما استنبطه عبد القاهر في دلائل الإعجاز، و ما يثبت ذلك قول الجاحظ[1] " إنما الألفاظ أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها، و قليلها لقليلها، و شريفها لشريفها، و سخيفها لسخيفها، و المعاني المفردة البائنة بصورها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة و الجهات الملتبسة".

و نخلص إلى القول أن الجرجاني قد انتهى إلى نتيجة مفادها أن الجاحظ في قولته تلك لم يتطرق إلى اللفظ من حيث هو لفظ مفرد، و إنما معنى المعنى حين انطلقت بتفسير تفاوت الدلالات الناجم عن طريق الصياغة " فقولك رأيت أسداً، و أنت تريد رجلاً شجاعاً تطرح به أولا دلالة أولية تنتقل منها إلى دلالة ثانية و إذا قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة و هي أن تقول المعنى و معنى المعنى فتعني بالمعنى المفهوم من ظاهرة اللفظ ، ثم يقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر فمرحلة معنى المعنى هي مستوى الفني من الكناية و الاستعارة و التشبيه ، و في هذه المرحلة يكون التفاوت أيضا في صورة و من مرحلة المعنى يتكون علم المعاني و من مرحلة معنى المعنى يجيء علم البيان و لهذا نستطيع أن نقول أن عبد القاهر بعد أن انتهى من كتابة دلائل الإعجاز الذي خصّه للمعنى، حاول أن تخصص كتاباً لدراسة معنى المعنى، فكان من ذلك كتابه أسرار البلاغة.[2]

2-10. إبن وهب الكاتب:

لقد اعتبر إبن وهب نموذجا متميزاً في دراسة البيان العربي ينضاف إلى جهد البلاغي المشهور " الجاحظ" الذي اعتبر المؤسس الأول للبيان العربي، " و ابن وهب" هو الآخر قد قدم منجزاً ينضوي تحت باب البيان بعنوان " البرهان في وجوه البيان".

لقد شكل هذا المنجز محور جدال بين عديد من الباحثين في المجال البلاغي في الإضافة إلى الاختلاف في نسبه لمؤلفه الحقيقي فقد شكّل هذا العمل جدال بين النقاد حول مؤسس البيان ، بين

[1] – الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 311.

[2] – ينظر: إحسان عباس، ص 423-429.

مؤيد للجاحظ و منحاز لابن وهب، فهل يعد ابن وهب حقا مؤسسا للبيان العربي؟ أم أنه مثل باقي الباحثين و الأدباء و البلاغيين قد نهل من الجاحظ و اقتفى أثره؟

سبق و أشرنا إلى أن ابن وهب قد ذكر في مؤلفه بأنه قد وقف على كتاب الجاحظ " البيان و التبيين" منتقداً إياه من حيث أنه وجد فيه أخبارا منتحلة، و لم يأت فيه بوصف البيان لا أنت على أقسامه في هذا اللسان، إذ بات هذا الكتاب غير مستحق لهذا الاسم الذي نُسب إليه[1].

كذلك نجده يوجه له انتقادا من مثل إشارته إلى أن الناس قد ذكروا للبلاغة و وصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها ، و قد ذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به ، و كان كل وصف منها يقتصر على الإحاطة بحد ذاتها[2] ، و هذا إن دّل إنما يدل على تتبعه لمؤلف الجاحظ.

و الحقيقة أن ابن وهب في عرضه لأصول البيان قد سار على خطة الجاحظ في أغلب مسائله، في حين قسم البيان إلى أربعة وجوه جعل أوله:

أ. بيان الاعتبار: أو بيان الأشياء بذاتها و هو ما يعادل بيان النخبة عن الجاحظ.

ب. بيان الاعتقاد: هو الذي يحصل في القلب عند اهمال الفكرة و اللب.

ج. بيان العبارة: و الذي هو النطق باللسان و يعادل بيان اللفظ عند الجاحظ .

د. البيان بالكتاب: و الذي يبلغ من بعد أو غاب و هو بيان الخط.

و يبقى بعد ذلك من بيان الجاحظ و دلالته دلالتان هما دلالة الإشارة و دلالة العقد، فلم يذكرها صاحب البرهان على أنهما نوعان كبيران هما فعل الجاحظ[3] على ان المتتبع لكتاب " ابن وهب" يلغي الكثير من المسائل البيانية التي فيها من الفائدة الكبرى للبيان العربي ما لمؤلف الجاحظ و

[1] – ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، ص 68.

[2] – ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي ، ص 69.

[3] – المرجع نفسه، ص68.

هذا أمر شُهد من قبل أغلب الباحثين في ميدان فلولا الفائدة الكبرى التي أحصاها النقاد في كتابه لما وقع في الاختلال حول مساهمة كل من صاحب الكتاب و صاحب " البيان" في التأسيس للبيان العربي.

المبحث الثالث

" الجاحظ و ابن وهب و تقدير الإضافة "

" بين العمري و صمود"

لا يختلف الباحثون في أن عملية قراءة التراث البلاغي و النقدي بتأمل و تفكير لاستنباط قيمته الفكرية بمختلف أنماطها و أشكالها ، يعد ضرورة نظرية و تحليلية تستدعيها أمور كثيرة تتعلق في معظمها بضرورة مواكبة التطور الحاصل لأدبنا العربي في شكله و مضمونه ، و كذا في أساليبه وفنونه ، ثم مراعاة البيئة و المحيط الذي نشأت فيه المنابت و الأصول الأولى للبلاغة العربية[1].

و ليس أولى بالعناية في الدرس البلاغي التراثي من الجاحظ باعتباره المؤسس الأول لعلم البيان "و الذي فرض نفسه على العصور و ظلت مدرسته البيانية مشعة حاملة لواء البيان ، وظل نسخة فريدة في تاريخ الثقافة العربية سعى المحققون على أن يعثروا على ثانية لها ، فما وقفوا على شيء بل وجدوا

[1]– عباس أرحيلة، الكتابة و صنعت التأليف عند الجاحظ، الوزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، الكويت، ط1، أكتوبر 2013، ذو القعدة 1434، ص 36.

من حاول أن يتشبه به أسلوبا و منهجا و لكن عند المقارنة اختفت المماثلة و قيل هيهات"[1]، فلقد عد الجاحظ عند القدماء كما المحدثين المعلم الأول و إليه تنسب الريادة في التأسيس للبيان العربي.

وكما اعتبر صاحب "البيان و التبيين" المؤسس الأول و على نهجه سار كل من تبعوه و اقتفوا أثره، فإن منجزه قد قرئ كذلك بالمخالفة و التخطي من طرف البيانيين القدامى ، ولعل أحسن مثال لهذه القراءات نجد ابن وهب الذي خالف الجاحظ في منجزه البياني ،و رأى بأن ما قدمه عن البيان لا يستجيب للمتوقع من عنوان الكتاب ، فمن الواضح إذا أن ابن وهب يرى في كتاب الجاحظ نقضا انتدب نفسه لتداركه بتصنيف كتابه "البرهان في وجوه البيان".

و بالرغم من أن هذا الكتاب لم يلق الرواج الذي لقيه مؤلف الجاحظ ، ولم يحظ بالعناية والدراسة الكافية ، إلا أننا نجد له صدى عند المحدثين ممن اشتغلوا على المنجز البياني و رأوا فعلا نقصا فيما أتى به الجاحظ في الحقل البياني ، و أنم منتهاه و استئنافه سيتم على يدي ابن وهب بل و هناك من انتزع الريادة من الجاحظ و جعل الأولوية في بناء الصرح البياني المتكامل تعود لابن وهب.

نتفيأ في هذا السياق الوقوف على مقارنتين حرصت كل واحدة منهما على إبراز الإسهام البياني لكل من الجاحظ و ابن وهب ، ففتحوا أفق جديد للدراسات التراثية في الخطاب النقدي المعاصر بتفاوت حاصل بينهما ، تعود الأولى للباحث المغربي مُحَمَّد العمري، و الموسومة ب " البلاغة العربية أصولها و امتداداتها" و الثانية للباحث التونسي " حمادي صمود" والموسومة ب "التفكير البلاغي عند العرب ،أسسه وتطوره إلى القرن السادس ، مشروع قراءة.

3-1 قراءة حمادي صمود:

قبل أن نتطرق لقراءة الباحث صمود للمنجز البياني عند الجاحظ ، تجدر بنا الاشارة إلى أن استيعاب مقاربته هذه يتطلب التوغل في أصول البلاغة العربية القديمة و الإحاطة بكل فروعها وفي الوقت ذاته التمكن من المقولات النقدية المعاصرة في مظانها الغربية الأصلية ذلك أن مقاربته قد

[1]– ينظر: محمد البشير مسالتي، الجاحظ في قراءة الدارسين المحدثين، ص 188.

تأسست في منطق الربط و التفاعل بين المنجز التراثي والنظريات الحداثية ، وهو ما يصعب الإلمام به من قبل أي باحث.

ينطلق حمادي صمود في قراءته للمنجز الجاحظي بإيلاء الأهمية الكبرى للجاحظ ، بل يجعله ركيزة العمل ، يقول:

" إن الحاجظ هو واضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي ، بحيث تبقى الفترات التالية تستلهم مادته و تستحضر مقاييسه "[1] ، كما أن مؤلفاته بفهم صمود تعد أقدم أثار وصلتنا لها علاقة بأفانين القول و التعبير ، وهو كذلك أول تأليف يخصص بدراسة الكلام البليغ ، و ضوابط المستوى الفني من اللغة ، لم يقتصر مؤلفها على الأحكام العامة بل دعم ذلك بأسس نظرية تبين عن تفكير بلاغي تعدى مجرد الرواية إلى الخلق و الابتكار ، مما جعلها – أي مؤلفاته – مصب قرون من النشاط البلاغي و مجمع أهم انطباعات العرب البيانية ، لهذا سمي ما قبله للمرحلة "ما قبل الجاحظية " وخصه – أي الجاحظ – "بالحدث الجاحظي " ثم ما تبعه بـ "ما بعد الجاحظ"[2] .

لقد وضع صمود كتابه في ثلاثة فصول ، كان الأول كما سبقنا الذكر بعنوان " البلاغة قبل الجاحظ" و الذي جعله في عوامل النشأة و المادة المعرفية التي أسست للبلاغة وقف فيها أكثر شيء على صلة المجاز بالمباحث البلاغية ، أما الفصل الثاني فوسمه بـ "الحدث الجاحظي "وهو لبّ الكتاب عرض فيه خصائص المادة البلاغية في مؤلفات الجاحظ ثم توقف عن مفهوم البيان عنده مفصلاّ الحديث في انتقاله من العلامة مطلقا إلى العلامة اللغوية ، ثم تحدث عن البيان باللغة ثم عن المتكلم مركزا على الوظيفة الأساسية "الفهم و الإفهام "[3] و ختمه بالحديث عند حدث البلاغة وما آلت إليه حتى القرن السادس.

---

[1]– حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب ، ص 14.

2– ينظر: المرجع نفسه، ص 201.

[3] – ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 14–16.

إن أول شيء يمكن أن نشير إليه في مقاربة صمود للمنجز الجاحظي هو رأيه فيما يخص فحص مقولات البيان عند الجاحظ ، و التي لا تتأثر في تقديره إلا من خلال جمع المواد المعرفية الموجودة في " البيان و التبين " و في " الحيوان " ، عطفا على المواد الموجودة في " الرسائل " وبذلك تتسنى القراءة الشاملة للمدونة الجاحظية بوضع نصوصها بإزاء بعض .

وهذا ما جسده الباحث صمود في عمله هذا ، حيث توقف عند الأصل لمواقف الجاحظ اللغوية وآرائه البيانية في جمال القول و نجاعته ، نتحدث هاهنا عن البيان أو سلطان البيان الذي فرض نفسه على الثقافة العربية و كان على مر العصور محل اشتغال الباحثين و النقاد على اختلاف مشاربهم . لقد أدى اشتغال صمود بالبيان عند الجاحظ إلى الخلوص إلى نتيجة مفادها أن الجاحظ لم يستعمل مفهوم البيان في المعنى الاصطلاحي الضيق كما ضبطه البلاغيون المتأخرون في نطاق التقسيم الثلاثي المعروف، و إنما استعمله في معنى أوسع يضع طرائق الدلالة و الوسائل التي تمكن المتكلم من أداء المعنى ، يقول صمود :"مفهوم البيان عنده –اي الجاحظ – يتدرج من العلامية مطلعا إلى العلامة اللغوية بمستوييها لأدبي و العادي "[1]، فالبيان عنده يتصل بعلم العلامات ، هذا العلم القائم بذاته ، و قد يضيف فيرتبط بالعلامة اللغوية ،" بوصفها أداة مكتملة تمكن مستعملها من إبراز حاجاته و التعبير عن خوالج نفسه"[2]، وهذا ما يفسر عدم انتصار الجاحظ على اللغة ، فذكر العقد و الإشارة و الخط و النصبة.

كما وقف الباحث صمود في مبحثه هذا على قول الجاحظ " قال بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني : المعاني قائمة في صدور العباد المتصوَّرة في أذهانهم و المختلجة في نفوسهم ، مستورة خفية وبعيدة وحشية و محجوبة مكنونة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه و حاجة أخيه و خليطه ، و لا معنى شريكه، و المعاون له على أموره و على ما يبلغه من حاجات في نفسه و إنما

[1] – حمادي صمود التفكير البلاغي عند العرب ، ص 157.

[2] – المرجع نفسه، ص 157

تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها و إخبارهم عنها و استعمالهم إياها ، وكلما كانت الدلالة أوضح كانت الإشارة أبين و أنور ، و أنقع وأنجع "[1] .

لقد سعى صمود من خلال هذا القول إلى أن مفهوم البيان عند الجاحظ إنما يهتم بالغايات لا بالوسائل و يتحدد بالوظيفة الأساسية للغة و هي الفهم و الإفهام.

إن صمود لا ينطلق في مقاربته المنجز البياني الجاحظي من مصادر قبلية جاهزة يسعى بمقتضاها إبراز ما يتوفر في نصوص الجاحظ من عناصر الحداثة ، بل يبني دراسته مركزا على نطاق الخطاب الجاحظي من داخله و استجلاء آلية افتتاحه للمعرفة النقدية ، و في أثناء ذلك نجد الباحث يشيد في كل مرة بمركزية الجاحظ في البلاغة العربية و يبعد ابن وهب .

إذ نجده بعد قراءة اسحاق بن وهب الكاتب لمنجز الجاحظ " البيان و التبيين "، قراءة شاذة بوصف مؤلفاته فيما يقول صمود : "أهم مرجع لعلوم البلاغة نشير إليه و ننقل عنه و نشيد بفضله"[2]، و قد قدم صمود لإثبات صحة نظره فيما قاله عن ابن وهب قراءة لقول اسحاق في مقدمة كتابه :"أما بعد فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه "البيان والتبين "، وإنك وجدت إنما ذكر فيه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة، و لم يأت فيه بوظائف البيان و لا أتى على أقسامه في هذا اللسان ، فكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه ، و سألتني أن أذكر لك جملا من أقسام البيان آتية على أكثر فصوله ... و قد ذكرت في كتابي هذا جملا من أقسام البيان "[3]،فيرد صمود معلقاك" و قد يحمل هذا على تقليد معروف في الحضارة العربية الإسلامية . فالمؤلف المتأخر يحاول أن يجد مطعنا على المتقدم حتى يقنع بضرورة كتابه ، و إلا فإنه على اختلاف المقاصد من التأليف قد انساق وراء الجاحظ و قسم وجوه البيان قسمته ، و أكثر من

[1]–الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص 290.

[2] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 16.

[3] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 7

النقل عنه"[1]، و يضيف صمود مفسرا رأي ابن وهب مبينا مزية السبق الجاحظي فيقول: "ثم حتى هذا التحامل فإنه يدل دلالة تاريخية ذات قيمة مفادها أن كتاب الجاحظ هو الكتاب الوحيد المختص بهذا الموضوع ، أو أن له من الخصائص ما حجب كل المحاولات الأخرى –إن وجدت– مما يؤكد دور الجاحظ و مكانته في تاريخ التأليف البلاغي"[2].

والحقيقة أن هناك فرقا بين استراتيجية الكتابين ، نقصد "البيان و التبيين" و "البرهان"، و يظهر لنا هذا الفرق في المقدمتين ففي الوقت الذي قدم فيه الجاحظ كتابه بالحديث عن اللسان ، أي القدرة التعبيرية و ما ينتابها من عوائق و عيوب تؤدي إلى العي ، نجد ابن وهب يخصص أكثر مقدمة بيانه و جوهرها للحديث عن العقل ، منوها به و مبينا الغريزي منه و المكتسب .

و من هنا جاءت خطابة ابن وهب البيانية مختلفة عما جاء به الجاحظ ، يقول العمري :" يبدو جليا أن الجاحظ كان ينظر لموهبة العربي للفصاحة التي هي صفة مميزة للإنسان العربي الأعرابي وهذا سر حديثه عن أنواع العيوب النطقية التي تفسد نطق غير العربي ، ومن هنا فاحتفاله بالبيان العربي يتجلى في الخطابة ، فهي نموذج الكمال في الحديث الشفوي الذي هو سليقة و موهبة عند العرب ، فكان ضروريا أن يحتل الجانب الصوتي مكانة مرموقة في كل حديث عن الكلام الشفوي خاصة في جانب الآلة أو فصاحة اللسان ... و في الوقت الذي كان فيه الجاحظ يعرض نماذج البيان العربي مما انتخبه من خطب الأنبياء ، اتجه ابن وهب إلى الثقافة الفلسفية التي توسع مجالها في عصره خاصة في باب الاعتبار ، فكان مشدودا إلى التطور الذي ناله النثر بتطور جهاز الدولة وتنظيم وظيفة الكتابة ، و لذلك خص الكتاب أو "البيان" بالخط بفصل يستحق أن يكون كتابا مستقلا" [3].

يتضح لنا من خلال هذا القول أن الجاحظ فيما يعيد جميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ و غير لفظ إلى خمسة و هي(اللفظ، الإشارة ، النصبة ، العقد ، الخط) ، ثم يكتفي عند التحليل

[1] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 16–17.

[2] المرجع نفسه، ص ن

[3] محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة و الشعر، ط1، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، المغرب، 2001، ص 71.

بالحديث عن البيان باللفظ و الإشارة ، أي ما يحتاج إليه الخطيب، يرجع ابن وهب البيان إلى أربعة أسس تتضافر لإنتاج المعنى هي (الاعتبار ، الاعتقاد ، العبارة ، ****) ، و هكذا فقد أراد ابن وهب أن يؤسس مشروعا في البيان يستدرك به على المشروع البياني الجاحظي ، و ينطلق العمري من طرح مفاده أننا لا نستطيع ان نعد ابن وهب قارئا للجاحظ قبل أن نفكك و نركب عمل كل منهما : " و إذا نظرنا من زاوية الخطابة و البيان الخطابي فإن مشروع الجاحظ في البيان و التبيين لا يمكن أن يفهم إلا من خلال قراءة ابن وهب له ، و استئنافه لمشروعه ، فابن وهب يرى أن الجاحظ لم يقدم شيئا يستحق الاعتبار في باب البيان"[1].

و سنقف فيما بعد على مقاربة العمري ، ويبقى لنا أن نقول أن دراسة صمود تمثل أهم الدراسات التي ثمنت بشكل واضح و صريح و بالتحليل و التعليل للإسهام التنظيري الجاحظي في بناء المنجز البياني العربي ، فإليه يمنح قصب الاستباق منوها شدة مركزية الجاحظ في النظرية البلاغية العربية القديمة باعتباره مؤسسا و ملهما لكل من جاء بعده.

3-2. مُحَمَّد العمري:

لقد جاءت محاولة العمري بعد سنوات مما قام به صمود، غير أنه و في تقييمه للمنجز البياني الجاحظي و المتمثل في البلاغة العربية أصولها و امتداداتها لم يقف عند محاولة صمود بإعتبارها الأسبق و الأكثر قيمة من حيث الدراسات التي وضعت في هذا الحقل، إذ نجده في مقدمة كتابه يثني على محاولة صمود في العمل إلا أنه لا يستحضره في المتن أثناء معالجته للقضية خاصة و أن العمري يرجع تأسيس و استكمال- إن صح التعبير- صرح البيان العربي إلى ابن وهب و ليس الجاحظ ليخالف برأيه هذا العديد من الطروحات التي جعلت من الجاحظ المؤسس الأول لعلم البيان.

إن أقل نقطة يمكن أن ننطلق منها في قراءة العمري هو فهرس الكتاب فمن مجموع تسعة فصول موزعة على قسمين : خمسة فصول للقسم الأول و أربعة للثاني ، نجد العمري لم يخصص للجاحظ

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص 13.

سوى فصل واحد، هو الفصل الرابع من القسم الأول مجموع صفحات لا تتعدى 24 صفحة من أصل 519 صفحة من كتاب أُلّف في التاريخ للبلاغة العربية، زد على ذلك أنه لم يذكر اسم الجاحظ في عنوان الفصل المخصص و لا حتى في عناوين المباحث التابعة له و هي أربعة مباحث على التوالي: مشروع البيان، مفهوم البيان، المعرفة و الإقناع، مكونات الخطاب البياني المحتوى الفكري للبيان.[1]

قبل أن يخوض العمري في البيان عند الجاحظ نجده يشمل فصل الحديث عنه، بظاهرة الاستطراد التي ميزت كتب الجاحظ و بعض النقودات التي سُجلت حول استراتيجية الكتاب، منها ما أورده الباحث مُحَمَّد الصغير بناني: فيما نصه " و هذا الكتاب – البيان و التبيين- لم يجد عند المتأخرين و خاصة المعاصرين العناية الكافية التي هو جدير بها، فهو عند بعضهم ، مجموعة من المختارات الجيدة في الشعر و النثر [*] وهو عند البعض مختارات من الأدب من آية قرآنية و حديث أو شعر أو حكمة ممتزجة بما له من اراء في مسائل عدة [**2]

و بالإضافة إلى الدراسات التي رأت بأن الجاحظ لا يعتمد استراتيجية محددة و مضبوطة في كتبه نجد الآراء قد اختلفت أيضا حول النسق الاستطرادي الجاحظي، إذ هناك من يرى أنه يأدي بالقارئ إلى الغموض و التشويش[3] و هناك من رأى أنه قد اساء إساءة كبيرة إلى كتبه[4] بل و حد من قيمتها ، و ربطه في مقام آخر بعجز ذاتي للجاحظ الذي كان نتيجة مرض فالج فيقول " ... نجد في كتاب الحيوان يعتذر عن الاستطراد و عدم التدقيق و التبويب بالمرض الذي كان يعاني منه"[5]، أما "شوقي ضيف" فقد نعت استطرادات الجاحظ بأنها خلل في كتاباته و حاول تفسيره بمرضه و ثقافته الموسوعية

[1] – ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها و امتداداتها، افريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010، الفهرس.

[2] – ينظر:محمد الصغير بناني،النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ ،من خلال البيان و التبيين، دار الحداثة ، بيروت لبنان، ط1، 1986، ص45.

[*] قاصدا طه الحاجري و قراءته الموسومة ب: الجاحظ و آثاره.

[**] قاصدا ها هنا أحمد أمين و مؤلفه: ضحى الإسلام.

[3] – ينظر: جميل جبر الجاحظ في حياته و ادبه و فكره، دار الكتاب البنانين بيروت، 1968، ص 149.

[4] – ينظر: علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1994، ص 466.

[5] محمد العمري، البلاغة الإفريقية أصولها و امتداداتها، ط2، 2010.

، كما فسره بالإملاء الذي اضطر إليه[1]، و يكفينا بعد هذه الآراء أن نورد ما ذهب إليه الدكتور أمجد الطرابلسي : من أن كتب الأدب تتميز عن سواها بصفتين : الأولى فقدان الاختصاص ، و الثانية الاستطراد المستمر ، إذ أن كتب الأدب لا تقتصر على فن واحد بل هي تخوض في كل الألوان بدون استقصاء او استقراء[2] ، أما العمري فيسجل ملاحظاته في هذه النقطة يقول :" لم يقدم لنا الجاحظ ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الإقناعي التداولي الخاص ، بحيث يكون الثاني الذي اعتبرناه بلاغيا مستوى من مستويات الأول الذي اعتبرناه لغويا أو سيميائيا "، و في هذا ما فيه إغفال و التفاق إلى ما أصبح معروفا ومعتمدا في الدراسات الجاحظية من اعتذار الجاحظ عن العيوب المنهجية التي تكشفت للمعاصرين بسبب الفارق الزمني و ما نتج عنه من تراكم معرفي مكنهم من إعمال أدوات منهجية متعددة للكشف عن اختلالات التأليف و نقائصه ، إلا أنها لا تبيح لنا ان نطالب الكاتب بما يتعدى الأفق المعرفي لعصره[3] .

لقد سعى العمري في أثناء مقاربته للنص الجاحظي و للبلاغة العربية عامة من خلال وقوفه عند مفهوم البيان عند الجاحظ إلى إبراز البعد الإقناعي للبلاغة الجاحظية إذ اهتم الجاحظ حسب العمري في منجزه البياني بالفهم و الإفهام "يكد الجاحظ ينتهي من تعريف البيان باعتباره فهما وإفهاما بالوسائل اللغوية حتى قايض كلمة بيان ببلاغة "[4]، أي أنه يتدرج من كلمة بيان إلى كلمة بلاغة و من كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة ، وينتقل حسب العمري من واحدة إلى أخرى ، و كأنما يتحدث على الشيء نفسه ، و هنا يسجل الباحث كلمة بلاغة التي ظهرت عند العرب والإغريق في الحقل نفسه (حقل الخطابة).

[1] ينظر: شوقي ضيف الفن و مذاهبه في النثر العربي، ، دار المعارفن مصر، ط8، دت، ط1، /1946/، ص 168-172

[2]-أمجد الطرابلسي نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة و الأدب، الدار البيضاء، دار قرطبة للطباعة و النشر، ص 131-132.

[3] ينظر: دردار البشير، المشروع البياني عند الجاحظ بين المؤمول و المنجز: مقاربة أصواتية لقراءة العمري للإسهام الجاحظي في الدراسات البلاغية العرية القديمة من خلال كتابه البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، مداخلة غير منشورة.

[4] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص 201.

كما يوضح أن تفرع البلاغة عن البيان يعني تقديم الإفهام على الفهم ، و الخروج من نظرية المعرفة إلى نظرية الإقناع[1]، و منه بين العمري أن القراءات البلاغية الملاحقة قد استفادت من الجاحظ ابتداء من العسكري و انتهاء بابن سنان فقد أخذ منه أهم مكونيه للخطاب الإقناعي وهما " المناسبة و الاعتدال ، و ما وقع في مؤلفات ابن سنان حسب العمري ، شبيه بما وقع في بيان الجاحظ فالمشروع عند الجاحظ هو البيان بجميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ و غير لفظ (أي الإشارة و الخط و العقد و النصبة)[2]، ثم سرعان ما قويض البيان بالبلاغة ، ثم قويضت البلاغة بالخطابة ، و توجه الاهتمام إلى المقام و الأحوال ، يقول العمري : "و هكذا نلاحظ أن نظرية البيان بالانتقال من الشفوية إلى الكتابة ، من الجاحظ إلى ابن وهب تخلت عن الجانب الصوتي واهتمت بالمعاني العامة ، غير أن أثر النظرية الجاحظية ظل مهيمنا على العربية "[3].

إن ما يسوقه العمري من ملاحظات ينفرد بها جمهور النقاد يناقض ما يدعيه من استعانته بالمناهج المعاصرة ، التي تستقضي استحضار البيئة التي أنتج فيها النص و قراءات البلاغيين الذين عاصروا الجاحظ أو تقدموا عليه في الزمن ن و هذا ما يغفله العمري أغفالا متعمدا ، ليكون بمقدوره إنجاز القراءة المخالفة للتراث البلاغي القديم بأي ثمن و من ثمة تجنب الحوار الصريح مع صمود[4].و مع هذا التحامل على الجاحظ من قبل العمري و إصراره على تهميشه في إعادة بناء النظرية البلاغية نجده في عمل آخر موسوم ب:" الموازنة الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ للبلاغة و الشعر"، يخفف من حدة أحكامه من مثل ما نلقاه في "البلاغة العربية"، يقول في أحد المواضع : "و يبدو من خلال هذين الكتابين أن الأمور كانت تسير بسرعة كبيرة خلال القرنين الثالث و الرابع هجري ن سواء على مستوى المطالب المنهجية ن أو المعطيات الاجتماعية الثقافية ،

[1] ينظر: محمد البشير مسالتي، الجاحظ في قراءة الدارسين المحدثين، أطروحة مقدمة لنيل دكتراه العلوم، تخصص أدب عربي قديم، اشراف أ. عبد الغاني بارة، جامعة سطيف، 2013-2014، ص 272-273.

[2] – المرجع نفسع، ص.ن.

[3] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها،

[4]ينظر: البشير دردار، المشروع البياني عند الجاحظ بين المأمول و المنجز،

فلم ير ابن وهب في كتاب الجاحظ غير أخبار منتحلة و خطب منتحلة "[1]، فرغم إيراده لرأي ابن وهب المشهور في كتاب "البرهان في وجوه البيان" ن بهذه العبارة الخالية من أي موجه يدل على موقفه و إنجازه ، فإنه يلتمس للجاحظ عذر التقدم الزمني الذي لم تكن مطالبه المنهجية بدرجة وإجادة و إتقان أكثر مما أنجزه[2].

غير أن رأي العمري هذا لم يؤثر في نظرية المنجز البياني لابن وهب ، فها هو ذا –و في نفس الوقت – يظهر إنجازه لابن وهب من جديد فيقول :" و في الذي يصعب –إن لم يتعذر – استخراج خطة منهجية لكتاب البيان و التبيين ، نجد كتاب البرهان مبنيا علة خطة مفصلة تقوم على السير من الكل إلى الجزء ، من المشترك إلى الخاص "[3]، فالعمري بقوله هذا يهمل كليات الفارق الزمني بين منجز الجاحظ و منجز ابن وهب ، غذ لا تصح المقارنة بينهما باعتبار الفارق الزمني الشاسع بينهما ن إذ لو جاز أن تقارن الجاحظ و ابن وهب ، فما المانع من أن نقارن منجزه و منجز الجرجاني مثلا .؟

و يمكن أن نستضيء في هذه المسألة برأي "عبد السلام المسدي " في محاولته تفسير نقائض التأليف الجاحظي و أثر التراكم المعرفي فيه إذ يقول: 'إن أول ما يطالعنا به كتاب البيان و التبيين هو أن لصاحبه إحساسا واضحا بضرورة إدراك منهج محكم إحكاما نهائيا فضلا عن تقسيم كتابه إلى أجزاء مقصودة الفواصل ، ثم إلى أبواب صريحة الحدود ،يضع لجل الفصول عناوين فيها من التجريد و الشمول ما يجعلها محركا دلاليا لكل المادة في الحامل للعنوان كما في باب القول في المعاني الظاهرة في اللفظ الموجز ... و شتان هنا بين الفحص العلمي الذي يحرص علي القياس مقدار ما تحقق

[1]– محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، ص06.

[2] –ينظر: البشير دردار، المشروع البياني عند الجاحظ بين المأمول و المنجز

[3] –محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، ص 73.

للجاحظ من التحكم المنهجي في مادة كتابه ، و بين التسرع في الحكم عليه باستحالة استخراج خطة كتابه و الانتصار المجاني لكتاب البرهان"[1].

و نجده يقول في مؤلف آخر له : "...فنحن ما إن نتجاوز الأحكام الخارجية التي سنها القدامى حتى نقتنع بان النقد الباطني للكتاب يفضي بنا إلى الجزم بعفوية تلك الظاهرة ، بل لعله يسمح لنا بأن نزعم بأن الجاحظ لو استطاع أن يصنف كتابه تصنيفا أكثر إحكاما لما تردد في ذلك ، و أننا لا نكاد نشك أنه قد حمل على المسك و هو راغب منه "[2].

و انطلاقا من كل هذه المعطيات ، يجوز لنا أن نتساءل : هل كان لابن وهب أن يحقق ذلك المنجز لولا استفادته من المتقدمين عليه و خاصة الجاحظ الذي اعترف هو نفسه باطلاعه على كتابه؟[3].

و نشير أخيرا إلى مقال بعنوان :"البلاغة العامة في حوار الرصد و التنظير من الشعر إلى الخطابة " صدرت ضمن مؤلف جماعي هو " البلاغة و الخطابة "[4]ن و فيه نجد مُحَمَّد العمري يستدرك حكمه على مشروع الجاحظ بعد ما يسميه "إعادة اكتشاف المحاورة من ليالي الامتاع و المؤانسة ، في المفاضلة بي البلاغة و الحساب" ن قائلا:" فقد كان هذا الامتداد لو كشف عنه النقاب سيغني مشروع الجاحظ و ذلك بإخراج الخطابة (بلاغة الاقناع) من الأفق الشفوي الذي نظر منه الجاحظ و نظر له ، و من الأفق المنطقي الذي حشرها في ابن وهب إلى أفق الإنشاء و سياسة الدولة ، فأين هو الجاحظ الذي قايض البلاغة بالخطابة ؟ و أين الجاحظ الذي لا نستطيع استخراج خطة من كتابه ؟ هل هذه المقالة نوع من الاعتذار؟.

[1] عبد السلام المسدي، قراءات مع الشاب و الجاحظ و ابن خلدون، ط4، دار سعاد الصباح، الكويت 1993 ص 103.

[2] عبد السلام المسدي، مع الجاحظ البيان و التبيين منهج التأليف و مقاييس الأسلوب.أسس تقييم جديدة ص 102-103.

[3] بشير دردار المشروع البياني، عند الجاحظ بين المأمول و المنجز.

[4] ينظر: محمد العمري، البلاغة العامة (حوار الرصد و التنظير من الشعر في الخطاب ضمن كتاب جماعي: البلاغة و الخطاب إعداد و تنسيق محمد مشبال، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2014 ص 15-48-51.

و يمكن أن نقول أخيرا أن العمري –و بالرغم من تباين رأيه– فيما يخص مدونة الجاحظ إلا أنه يقدم ابن وهب عليه و يحتفي بإسهامه البياني ن و في المقابل وقف الباحث حمادي صمود على المنجز البياني للجاحظ و جعل له الريادة في بناء صرح البيان العربي .

و جملة القول أنه مهما اختلفت الآراء و تباينت حول مؤسس البيان العربي ، إلا أن أغلب الآراء تتجه نحو ترجيح كفة الجاحظ و شهادة أصحاب المجال معلما ذا قيمة شاهقة في تاريخ البلاغة العربية ، و عمله في البيان يمثل خلاصة المعارف البلاغية .

خاتمة

وبعد هذه الرحلة التي قمنا بها في عرض و تلخيص و مناقشة أهم الطروحات التي ساهمت في بناء صرح البلاغة أو البيان العربي ، و ما وقفنا عليه من مقاربات أعادت قراءة الموروث البلاغي عند الجاحظ وابن وهب وقدمت إيضاحات جديدة فتحت الباب أمام تطور الدرس البلاغي، وهذا وإن اختلفت في منطلقاتها و منهجها إلا أنها توخت جميعا الغايات نفسها الأهداف ذاتها.

لقد عُنيت دراستنا هذه بالوقوف على المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب وبغية الوصول إلى هذا المبتغى ارتأينا بأن ننطلق من مدخل استعرضنا فيه أهم المراحل التي مرّ بها الدرس البلاغي ووقفنا عند العوامل المختلفة التي لعبت دوراً هاماً وأساسياً في هذا التطور ، ثم انتقلنا في الفصل الأول نحو المقارنة بين المنجزين البيانيين فوقفنا عند الإسهام البياني لكل من العالِمين ، و لأجل استقراء قيمة الإسهامين ، جعلنا الفصل الثاني قراءة لأهم المقاربات التي تناولت الدرس الجاحظي و الدرس البياني عند ابن وهب وسعت لإبراز مكانة و قيمة كل منها في هذا الحقل المعرفي ، إن كان عند القدامى أو المحدثين ، ومن كل هذا توصلنا إلى خلاصة عامة حول البحث مفادها حملة من النقاط نستعرضها كالآتي:

1- أن العرب أهل بيان و بلاغة امتلكوا من ناصية البيان و الفصاحة سعة ما مكّنهم من التمييز بين صور الكلام ، إلاّ أنهم قد احتاجوا بعد دخول العنصر الأعجمي إلى ضبط قواعد عامة لعلم البيان. وقد هيأت لهذا الجوّ جملة من العوامل العقلية و القاعدية ، فتمت الملاحظات البلاغية وأخذت تتسع وتدق إلى أن أسست لنفسها كيانا خاصا استوى عوده واكتمل نضجه بتضافر مجهودات ثلة من العلماء و البلاغيين.

2- لا يجد بنا في هذا المقام إغفال العامل الديني ، فالدور الذي لعبه الإعجاز القرآني في تشييد معالم و أصول البيان العربي دور أساسي ، كان له عظيم الأثر فيما وصل إليه علم البيان أو البلاغة في عصرنا اليوم ، ذلك أنه من أهم الروافد الكبرى التي أمدت التفكير البلاغي بمادة ثرية وساهمت في بلورة النظرية البلاغية و نحن لا ننتقص ها هنا من قيمة إسهام فئة المتفلسفة و المتكلمين والخطباء و

علماء اللغة الذين أدلوا بدلوهم في هذ الحقل المعرفي ، وكان لهم إسهام بارز في تشييد هذا البناء و الحقيقة أننا لم نقف عند كل المجهودات التي برزت لشساعة المادة المعرفية في الحقل البلاغي ، بل اقتصرنا على أهم الأعمال التي اتصلت بصورة مباشرة بالحقل البياني .

3- إن المراحل الأولى التي مرت بها البلاغة كانت خطوة أولى في تكوين اللبنات الأولى في بناء هذا الصرح ، إلا أن هذه المادة و على غزارتها لم تجتمع كلها في مؤلف واحد صريح الانتساب إلى المباحث البلاغية المستقلة ، إذ كانت عبارة عن مجموعة من الآراء منثورة هنا و هناك لا تنطوي تحت تصور متكامل لفنون العقل و مسالك التعبير ، وهذا ما سيعمل عليه العلماء في الطور التالي من تاريخ البلاغة .

4-لا يمكن أن نهمل مهما كان عند تحدثنا عن البلاغة ألا نأتي على ذكر إسهام العلامة الفذ أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ إذ لمساهمته في تاريخ البلاغة مكانة خاصة يمكن أن نردها –حسب رأي الباحثين- إلى جملة من الأسباب:

أ.غزارة المادة البلاغية التي قدمها الجاحظ في مختلف مؤلفاته لا سيما و أنه قد أثرى هذا العلم بكتاب مستقل أسماه "البيان و التبين" و إن كان قد ضمن مؤلفاته الأخرى ، "كالحيوان" و"الرسائل" الكثير من الملحوظات البيانية التي اتخذها العلماء من بعده مرجعا لا غنىً عنه في ولوج بحر هذا العلم ،لأن هذا الكتاب قد نال من المكانة دون غيره من الكتب ما لم ينله أي كتاب من قبله و لا من بعده في الحقل البياني لعمق المادة البيانية فيه و بلوغها درجة من الدقة في استصاغة قواعد البيان العربي .

ب.الاتجاه العقائدي للجاحظ و الدور الذي لعبه في نحت معالم هذا الصرح المعرفي ،إذ من مذهبه الاعتزالي استقى الجاحظ مادته البلاغية خاصة ما تعلق بقدرة تأثير الخطيب في المتلقي و إقناعه وعلى أساسها حدد الجاحظ المعالم الكبرى في بلورة نظرية البيان

5 -إن مكانة الجاحظ و قيمته المعرفية محفوظة عند العلماء ، إن كان عند القدماء أو المحدثين، إذ لا يكاد يخلو أي جهد بلاغي من الإشارة إلى مؤلفات الجاحظ و الاستفادة منها، و اقتفاء أثره و هذا ما لاحظناه من خلال تسليطنا الضوء على بعض الأطروحات البيانية التي تناولت الجهد

البلاغي الجاحظي. سواء بالأخذ أو بالنقد ،و عليه يمكن القول بأن أغلب الآثار التي ساهمت بصورة مباشرة في تطوير المباحث البلاغية ترتدّ في أصولها إلى مؤلفات الجاحظ .

6- لم تقرأ مؤلفات الجاحظ فقط بالإيجاب و الأخذ، و إنما قرئت أيضا من منظور آخر ،هو منظور المخالفة و التخطي ،و هذا ما نلمسه في ما جاء به :أبو اسحاق بن وهب الكاتب الذي جعل كتابه " البرهان في وجوه البيان "دراسة جديدة في إعادة بناء البيان العربي، و الذي عبّر عن غرضه هذا في مقدمة مُؤّلفه ، و كما جعل الباحثون القدامى و أغلب المحدثين من الجاحظ مؤسساً للبيان العربي ، و حتى ابن وهب الذي لم ينل مؤلفه في الحقيقة النصيب الوافر الذي يستحقه من الدراسة خاصة عند المتقدمين باعتباره عملا ضخما له إسهامه في المنجز البياني العربي صدىً عند البعض، نتيجة مفادها أن ابن وهب يعد مؤسساً للبيان العربي بما نفذ إليه مؤلفه من إسهام له عظيم الشأن في بلورة البيان العربي .

7-إن أهم الدراسات المعاصرة التي تناولت الجهد البياني عند الجاحظ و ابن وهب هي تلك التي وقفنا عندها في الفصل الثاني من العمل و جعلناها في مسارين اثنين المسار الأول مثّلته مقاربة "حمادي صمود" و الثاني صورته مقاربة "مُحَمَّد العمري" ،و التي تُعد حقيقة من أهم المقاربات النسقية التي تناولت النصوص الجاحظية .فخلصت المقاربة الأولى و بعد دراسة طويلة عميقة واستقصائية للمنجز الجاحظي بمركزية هذا الأخير في تأسيس البيان العربي ،فإليه يرجع الفضل في استقلالية هذا العلم وعلى أثره سار المتوغلون بالحقل البياني، فكان دوره مركزيا في تأسيس مقولاته و أن جهده كان نبراسا لجميع من جاء بعده .

أما المقاربة الثانية فقللت من قيمة الإسهام الجاحظي في الحقل البياني و انتقصته ،إذ لا يعدو أن يكون مجموعة من الآراء و الملاحظات البيانية التي تحتاج إلى الصياغة في قواعد ثابتة ممنهجة تؤصل لعلم البيان ،و هذا ما قام به ابن وهب الكاتب الذي صاغ البيان العربي في قواعد ثابتة ومنظمة ومنهجية بطريقة منطقية و منه فإن جهد هذا الأخير يستحق أن يصنع من صاحبه المؤسس الأول لعلم البيان العربي .

و بين هذا و ذاك يبقى أن نقول بأن ابن وهب و بالرغم من الإسهام الكبير الذي حققه في المنجز البياني ، وجهده العظيم الشأن الذي لا يمكن إغفاله أو تناسيه في أثناء عرض تاريخ البلاغة العربية إلا أن الأسبقية في هذا ترجع إلى الجاحظ، فهو الأقدم زمنيا و هو الذي هيأ الأرضية لمن بعده لصياغة القواعد و الأصول الكبرى لعلم البيان ، و لذلك فإن جهود كل من جاء بعده تُعد استكمالا أو استئنافا لما قام به ، ضف إلى ذلك ثقافته الموسوعية في مختلف ميادين المعرفة فكل هذا إنما يحقق الريادة للجاحظ و المركزية في الدراسات البلاغية البيانية.

و أخيرا، نقول إن الجاحظ يمثل ظاهرة موسوعية في عصره، و ما تزال كتبه و آراؤه و أفكاره مثار اهتمام الباحثين والمؤلفين والمحققين، فأدبه و فكرُه يمتازان بطابع خاص يشير إلى ثقافة موسوعية وذكاء ومهارة في البحث والتأليف و التصنيف ، فاستطراده و خروجه من موضوع إلى موضوع ومن باب إلى باب هو أكبر شاهد على ثقافته الموسوعة الهائلة التي كانت تمكنه من الحديث في كل ما يخطر على بال السامع على حدّ من قال الشيء بالشيء يذكر، و التي مكنته من بلورة و تشييد صرح البيان العربي .

وبعد ، فهذا في الحقيقة جهد المقلّ ، حاولنا فيه أن نصل إلى نتائج معينة ، فنرجو أننا قد حققنا ولو الجزء البسيط من هدف الدراسة ، فإن تم لنا ذلك فبنعمة من الله و فضله وإلاّ فبتقصير من عندنا وحسب المرء أن تُعدّ معايبه.

قائمة المصادر و

المراجع

أولا: القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

ثانيا: المصادر

1. الجاحظ، البيان و التبيين، تح عبد السلام مُحَمَّد هارون، در الجيل.
2. الجاحظ، رسالة في الجد و الهزل، تح الحاجري القاهرة، 1993،.
3. الجاحظ، رسالة في مدح التجار و ذم السلطان ضمن رسائل.
4. (أبو)حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، الجامعة الإسلامية ،كلية الشريعة المدنية المنورة ج3.
5. (أبو) حيان التوحيدي، البصائر و الذخائر تحقيق ، ابراهيم الكيلاني مكتبة أطلس و مكتبة الافتاء1964 ج1.
6. الخطيب، القزويني، التخليص في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، ط1، 1904،.
7. (ابن) رشيق، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تج محي الدين عبد الحميد، ط4، 1972، ج1.
8. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة ، تحقيق حجر عاصي دار الهلال، بيروت، 1983.
9. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تح مُحَمَّد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1409هـ، 1988م.
10. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز.
11. قدامة بن جعفر، نقد النثر، الجامعة المصرية، دار الكتب القاهرة، مصر، 1351هـ/1933م، تح طه حسين، و عبد الحميد العبادي.
12. القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، دار احياء العلوم، بيروت، ط4، 1998.
13. مُحَمَّد بن ادريس الشافعي، الرسالة، دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع.
14. المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر ، شرح و تقديم مفيد تميجة ج4، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
15. (ابن) وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب و خديجة الحديثي، مكتبة الرشد،ط11433هـ/1012م.

ثالثا: المراجع

16.إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب دار الثقافة بيروت، لبنان، ط4، 1404هـ، 1983م.
17.أحمد الوردني، في قضية اللفظ و المعنى و نظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن 7هـ/13م المجلد الثاني ، دار الغرب الإسلامية ، بيروت لبنان، ط1، 2004.
18.أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته و نقده ، ط1 1973 بيروت لبنان.
19.ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ ، دار الثقافة، فيكتور هيجو، الدار البيضاء، ط1.
20.أمجد الطرابلسي نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة و الأدب، الدار البيضاء، دار قرطبة للطباعة و النشر.
21.انعام قوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع و البيان و المعاني، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1.
22.بدوي طبانة، البيان العربي: دراسة تاريخية في اصول البلاغة العربية، مكتبة انجلو المصرية، القاهرة،ط2 1377هـ/1958م،
23.جابر صفور، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي ، ط3 1992 الدار البيضاء المغرب.
24.جميل جبر الجاحظ في حياته و ادبه و فكره، دار الكتاب البنانين بيروت، 1968،.
25.حسن السندوبي، أدب الجاحظ المكتبة التجارية، القاهرة، 1931.
26.حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه و تطوره إلى القرن السادس هجري، منشورات كلية الأداب، تونس، ط2،1994،.
27.حمدي أبو علي، بحوث و مقالات في البيان و النقد الأدبي، دار البشير للنشر و التوزيع، عمان الأردن 1988.
28.حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العرب.
29.خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط9، ج5.
30.رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور، منشأة المعارف بالأسكندرية، مصر،ط2.
31.الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية و بلاغية في كتاب البيان و التبيين، دار القلم للنشر و التوزيعط2.
32.شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، تاصيل و تقسيم، دار الفكر العربي، القاهرة ، مصر 1987.
33.شوقي ضيف العصر العباسي الأول، ، دار المعارف مصر، ط6.

34.شوقي ضيف الفن و مذاهبه في النثر العربي، ، دار المعارف، مصر، ط8، دت، ط1، 1946.
35.شوقي ضيف، البلاغة تطور تاريخ، دار المعارف، ط9،.
36.شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، 4، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط12.
37.طه الحاجري، الجاحظ حياته و آثاره، دار المعارف بمصر ،1969.
38.طه حسين، التمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى القاهر، ضمن مقدمة نقد النثر لقدامة، دار الكتب العلمية بيروت.
39.عباس أرحيلة، الكتابة و صناعة التأليف عند الجاحظ، الوزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، الكويت ط1 أكتوبر 2013، ذو القعدة 1434.
40.عبد السلام المسدي، مع الجاحظ البيان و التبيين منهج التأليف و مقاييس الأسلوب، أسس تقييم جديدة.
41.عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم المعاني–البيان–البديع، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.
42.عبد المنعم خفاجي و آخرون، الأسلوبية و البيان العربي، الدار المصرية اللسانية.
43.عز الدين اسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي، دار النهضة للطباعة و النشر، بيروت.
44.علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1994..
45.فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة و التبعية، دار النفائس، الأردن، ط1 1432ه/2011م
46.للإستزادة، ينظر: أحمد بدوي أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، ط1، 1999.
47.مُحَمَّد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ ،من خلال البيان و التبيين، دار الحداثة ، بيروت لبنان، ط1، 1986.
48.مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية، أصولها و امتداداتها، افريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010، الفهرس.
49.مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة و الشعر، ط1، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، المغرب، 2001.
50.مُحَمَّد زغلول سلام ، تاريخ النقد الأدبي و البلاغة ، منشأة المعارف بالإسكندرية.
51.مُحَمَّد صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ، اشراف و مراجعة ياسين الأيوبي المكتبة العصرية، بيروت، ط1 ، 1998.
52.مُحَمَّد عابد الجابري بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.

53. مُحَمَّد عبد الغني المصري، نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي، صادرة عن دار حدلاوي للنشر و التوزيع الأردن، عمان، ط1، 1997.

54. مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد و التجديد، دار الجيل، بيروت لبنان ، ط1، 1412هـ/1992هـ.

55. مُحَمَّد علي زكي صباغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان و التبيين، المكتبة العصرية صيدا،بيروت،ط1418،1هـ/1998م.

56. مُحَمَّد محمود الدروبي، مقال حول" موقف الجاحظ من الثقافات الاجنبية"، مجلة ابحاث، مجمع اللغة العربية الاردني.

57. مُحَمَّد مشبال، البلاغة و السرد ، منشورات كلية الآداب ، ط1، 2010.

58. مُحَمَّد نبي حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مكتبة الطالب الجامعي،ط2

59. مصطفى عبد الرحمن ابراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، مكة للطباعة ، 1419هـ1998م.

60. مصطفى هدارة، في البلاغة العربية: علم البيان ، دار العلوم العربية، ببيروت لبنان، ط1 1409هـ/1989م، ص22.

رابعا: الرسائل و المقالات

61. دردار البشير، المشروع البياني عند الجاحظ بين المؤمول و المنجز: مقاربة أصواتية لقراءة العمري للإسهام الجاحظي في الدراسات البلاغية العرية القديمة من خلال كتابه البلاغة العربية أصولها و امتداداتها مداخلة غير منشورة.

62. مُحَمَّد البشير مسالتي، الجاحظ في قراءة الدارسين المحدثين، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه في العلوم تخصص أدب عربي قديم، اشراف أ. عبد الغاني بارة، جامعة سطيف، 2013-2014، ص 272273.

63. مُحَمَّد محمود الدروبي، موقف الجاحظ من الثقافات الاجنبية .

مقدمة أ–د

مدخل إلى تاريخ البلاغة العربية 2-37

الفصل الأول : المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب 39

1-1 الجاحظ و مفهوم البيان 41-62

1-2 ابن وهب و استئناف القول في بناء البيان 63-77

الفصل الثاني: المنجز البياني بين الجاحظ و ابن وهب قراءة في أطروحات المعاصرين 79

2-1 مكانة الجاحظ من خلال قراءات المعاصرين للتراث البلاغي 81

2-2 الجاحظ في أثر البلاغيين القدامى 93

2-3 الجاحظ و ابن وهب و تقدير الإضافة " بين العمري و صمود 105

خاتمة 120

قائمة المصادر و المراجع 125

فهرس الموضوعات 130